طبع بتعضيد من الامانة العامة للثقافة والشباب لمنطقة الحكم الذاتي

بيريسترويكا غورباتشوف

نقد وتحليل

مسعود محمد

الجزء الثاني

١٩٩٠

نقد و تحليل مسعود محمد الجزء الثاني

طبع بتعضيد من الأمانة العامة للثقافة والشباب لمنطقة الحكم الذاتي

بيريسترويكا غورباتشوف

نقد وتحليل

مسعود محمد

الجزء الثاني

مطبعة الحوادث

بغداد ١٩٩٠

كلمة تقديم

الأعمال بالنيات ، وما كان منها عملا فكريا يحتمل اختلاف رأي الناس فيه بأكثر من العمل الاعتيادى المقضى في حوائج المعيشة لان الفكر نطق مكتوب أو ملفوظ يحمل رسالة في التأييد أو النقد أو المعارضة وقلما يقف على برزخ الحياد المطلق لأن المعنى المجرد نفسه قد يوافق زيدا ولا يوافق بكرا من الناس • ويكاد يكون في حكم البديهية أن كسب رضا الناس كلهم أمر داخل في حدود المتعذر فضلا عن ان الاجماع في الرضا على الرأى أدل على هشاشة ما تم الاجماع على قبوله فلا تجتمع الأضداد على شيء الا اذا خلا من المساس بشئون البشر ما بين مصلحة ومهلكة أو كان منشغلا بالحقائق في الأمور المحايدة من فلك ورياضيات وطبيعة وما اليها • وكتابتي هذه في الطرف الأقصى المقابل للحياد فأنا متحيز لمساعي هذا الرجل وأظنه قد سمى (رجل ١٩٨٩) وهو بخطورة مركزه في قيادة دولته في التوجه نحو الوئام الحقيقي أكبر جدا من ان يحويه وصف (رجل هذه السنة) أو اى شيء محدود مثله • ولئن كان التنبؤ بما يلده الحدث في انبعاثه وانقضائه أمرا خارج نطاق اليقين الا أن الخصوصية التاريخية غير المسبوقة لخطورة موقف الرئيس غورباتشوف تجعل من حدوث (اختفائه) لا قدرت الاقدار ، يؤذن

باحتمالات هى في وضوحها بقوة الوضوح لغلبة الظلام بعد اختفاء القمر وصعوبة السير فيه بقياسه الى المشى في نوره • وقالت العرب :

وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

وأظنني لشدة احساسى بالمدى الفارق بين الأحوال المختلفة افتقد البدر وهو طالع فلربما حملت الشموع معي تحسبا لليل غاب بدره ، فلقد كنت مشتت الفكر معطل القلم بعد خروجي من المستشفى يوم ١٩٨٩/٩/٢١ فدفعني شعورى الطاغي بوجوب مجاوزة المعاذير والمعيقات لأخراج الجزء الاول من هذا الكتاب الى النور لعله ينهض بالواجب الرمزى عنى في معايشة حيثيات المعمعان الانساني القائم في غمرات البيريسترويكا والغلاسنوست • وبسبب عوامل أقوى مني تأخر صدوره عن أوانه المنتظر أكثر من شهر ونصف شهر فكان ميلاده في اول عام ١٩٩٠ عوضا عن اواخر ١٩٨٩ • الا اني عوضت خيبتي في هذا التأخير بالمبادرة الى استئناف الواجب في اخراج الجزء الثاني منهفباشرت بكتابته في بعض ايام الشهر الثاني عشر من عام ١٩٨٩ وسط ظروف خاصة تشوبها العراقيل وظروف عامة عالمية تبعث على القلق من منظور الغليان وتفاقم الأحوال في كثير من الدول والشعوب المشمولة بمظلة (اعادة البناء والمصارحة) • وساعدني هدوء اواخر الليل وخلوها من المشاغل على الانتهاء من كتابة مقدار متناسب مع حجم الجزء الأل في ٩٩٠/١/٢٣ والى هنا تنتهي قدرتي في مواكبة الأحداث من موقع العزلة والحيدة الا ما كان من المشاركة الوجدانية والاسهامات الفكرية ومعي كمية ضخمة من التمنيات والدعوات لخير البشرية فعسى ان يجد ميلاد الجزء الثاني بعد أشهر ، انفراجا في الازمات يبشر بما هو أصلح وأبقى •

١٩٩٠/١/٢٤ مسعود محمد

بيريسترويكا غورباتشوف

الجزء الثاني

بعد الذي مر في الجـــزء الأول مـــن هذه الكتابة في تعليقانها وتعقيباتها على كتاب الرئيس غورباتشوف نصل في نهاية الصفحة ٣٩ منه الى عنوان جديد هو :

دروس في التأريخ

هذا العنوان يمتد الاستطراد فيه حتى اوائل الصفحة ٥٤ من الكتاب ويتضمن امورا جمة تستدعي الأهتمام بها ولكني اترك جانبا منها خشية الاطالة الزائدة ولكونها من المواضيع الشائعة التي لاتـدق على الانظار .

يستهل الكلام تحت هذا العنوان : (يصح القول بأن تطور ما بعد الثورة مر بمراحل صعبة ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة الى التدخـــل الفظ للقوى الامبريالية في شئوننا الداخلية كما حدثت أخطـــاء في السياسة وفي التقديرات والحسابات) .

اقول اذا كان الكلام قاصرا على أنه حدث تدخل مـن قبل دول الغرب وكان له بعض التأثير في اوائل الثورة لما جاز الاعتراض عليـــه ولكن صيغة الكلام تتجاوز هذا المدى مسافة واسعة فأنه :

١ ـ لم يكن التدخل (فظا) في ظل حرب جندت فيها عشرات ملايين الجنود فالذين شاركوا من جنود دول الغرب في مهاجمة روسيا لم يتجاوزوا نسبة واحد الى ثلثمئة لمجموع المشاة من الدول المتحالفة بل انها قد تكون أقل من ذلك ، أما نسبة مشاركة الاسلحة الأخرى من طيران وبحرية ودبابات ومدافع فهي بالتأكيد دون ذلك بكثير • والحقيقة ان الفكر ليحتار في مدى الغباء الذى يدفع صاحبه الى التصدى لمحاربة بلد في ضخامة روسيا على البعد السحيق بهذه المقادير التافهة من القوة البشرية والآلية • أظن ان حلف وارشو غزا جيكوسلوفاكيا ، المفتوحة قبل ان تهاجم ، بستمئة الف جندي فأين هذا من ذاك ؟

٢ ـ ان روسيا تركت التزاماتها تجاه دول الغرب ومكنت المانيا من التفرغ لها بعد انسحاب روسيا من الحرب ، وهذا ما فعلته روسيا في مشارف الحرب الثانية باتفاق ستالين ـ هتلر مرة اخرى وان تكن الظروف هذه المرة خالية من الألتزامات ولكن يكاد يكون من باب البديهية ان الاتفاقية المذكورة كانت بمثابة دق جرس البداية في الملاكمة فما أظن ، ولا احسب احدا يظن ، ان المانيا كانت تجازف بالحرب لولا اطمئنانها الى سلامة حدودها الشرقية • وللمرأ ان يتصور ماذا كان رأي روسيا والدولية الثالثة خليقا ان يكون لو أن الغرب عقد اتفاقية مماثلة مع المانيا قبل ان يعقدها ستالين : لاشك في ان الاتهامات واللعنات كانت تلاحقه بأعنف مما لاحقت امريكا في الحرب الثانية بعد القائها القنبلة الذرية على اليابان رغم ان روسيا كانت شريكة امريكا في الحرب لكنها هي وبريطانيا نجتا من اللوم • والدنيا حظوظ •

٣ ـ جاءت حكومة الثورة الروسية ، ولاسيما بعد نجاح البلشفية في الوصول الى الحكم ، بشعارات ومفاهيم تستهدف بصراحة هدم

الأنظمة الحاكمة في اى مكان تستطيع هدمها فيه ولاسيما الدول الصناعية القوية منها والمشهورة حتى اليوم بالامبريالية والاستعمارية رغم أنها لا تملك شبر أرض في غير اوطانها وليس لها احتلال ، اى احتلال ، الا في المانيا وهو احتلال نزهة ، بل جزء من تدابير الوقاية والهجوم • انه وان كان الحكم صعبا على ماجريات الأمور في دول الغرب على ابان الثورة الروسية وفي اعقاب الحرب الأولى مباشرة اى في سنوات التدخل، لمعرفة الاسباب الحقيقية الحاسمة التى منعت استمرارها في التعبئة حتى تصفى حسابها مع روسيا البلشفية لكن الظاهر كما اعتقد هو سببان خطيران : الأول تعسر بل تعذر هذه التصفية في امبراطورية بوسعة روسيا المعادلة لقارة بأكملها مساحة وسكانا وبعد موقع من مراكز تحشد الغرب ، يضاف اليه الانهاك (فيما عدا حالة امريكا) في حرب عظمى دامت أربع سنين وقد يكون لصعوبة حصول الاتفاق بين دول الغرب على كيفية ادامتها وتغذيتها وقيادتها ومدى كلفتها على كل دولة ••الخ • دخل في هذا التعذر •

الثاني ، احتمال رفض شعوب اوروبا الغربية الدخول مجددا في حرب لايعرف لها نهاية • وتذكر مذكرات الوزير الانجليزي (أيمري) ان الجيش البريطاني رفض في النصف الاول لسنة ١٩١٤ الامتثال لأمر الحكومة في القيام بحملة تصفية للوطنيين الايرلنديين في وقوفهم موقف المتصلب المطالب بالاستقلال وذلك لعدم اقتناع ضباط الجيش البريطاني بوجود أي منطق من جانب بريطانيا في هذه التصفية ولكن الضباط أنفسهم شاركوا في الحرب ضد المانيا وقتل فيها غالبيتهم بعد بضعة أشهر من تمردهم في مسألة ايرلندا فقد كانت لهم وجهة نظر أخرى في حرب المانيا اذ اعتبروا المشاركة فيها أمرا لايقبل المناقشة •

ولقد مرت بنا في الجزء الأول من كتابي هذه المسألة في شيء من الاختصار .

لقد أخر الرئيس غورباتشوف ذكر الخطأ في السياسة والتقديرات والحسابات عن ذكره للتدخل الامبريالي كسبب لصعوبات التطور بعد الثورة ولست ألومه في ذلك فهو في الأغلب الأعم شيمة السياسيين في تخفيف الحمل عن كواهلهم بحمله على كواهل غيرهم ما امكنهم ذلك . ولكن عدم اللوم لا ينسيني حقائق الأحوال والأسباب سواء في كتاب البيريسترويكا أو في كتاب أي زعيم سياسي اخر أو حتى في طريقة لعب فريق كرة القدم . فالحقيقة ان الصعوبات نشأت من اللاواقعية لثورة شيوعية لم تكن أحوالها المادية قد نضجت في أي بلد بالعالم بحسب نظرية ماركس . ولست أناقش هنا فكرتي في ان نضوج الاحوال لنجاح ثورة شيوعية بمقتضى اشتراطات ماركس يبطل الحاجة الى الثورة أصلا لأن ذلك من قبيل وصول الفتى الى سن البلوغ لايحتاج فتوى من دوائر النفوس أو قضاة الشرع . والدليل على عدم نضوج الاحوال وعلى لاواقعية الثورة الشيوعية هو ان الصعوبات استمرت ادهارا بعد انقضاء التدخل الاجنبي والحرب الداخلية وتراكمت في السبعينات ، على ما مرمن كلام الرئيس غورباتشوف نفسه مما تم التعقيب عليه في الجزء الاول من هذه الكتابة ، وعانت روسيا والدول الأخرى السوفيتية من المصاعب على كل الأصعدة خلال عمرها حتى في الأعوام التي كانت فيها الدنيا من حولها في أحسن حالاتها المستريحة .. ومن غريب أمر الضيق والفرج في أحوال الشعوب ان الازدهار يتم في مدى زمني من استواء الأمور أقصر كثيرا من المدى الزمني الذي يستغرقه التراجع من الوسعة الى الضيق . ولربما كان السبب في ذلك هو ان التوجه نحو الازدهار هو

عبارة عن عملية جمع فضلة الموارد الى ما كان منها موجودا قبل الازدهار في حين ان التراجع الى الضيق عبارة عن طرح مقدار النقص في الموارد من الازدهار الذي كان سائدا يضاف اليه المورد الذي يتحقق حتما في حالة الركود • فالحالة الاولى فيها عملية جمع خالصة اما الحالة الثانية ففيها طرح وجمع ولذلك تكون العملية الاولى أسرع في الثمر وتكون الثانية ابطأ في التراجع ، ولو كان النكوص من الازدهار يعني توقف الموارد بالكلية لكان المخزون من موارد ما قبل النكوص بذاته لايكفي أي وقت ملحوظ ولأفضت الحالة سريعا الى القحط والموت جوعا • والكلام هنا يجري في معتاد الحياة وليس في شواذها كأن يحدث طاعون أو كارثة طبيعية من جفاف وسيول أو اكتساح اجنبي للأموال والأنفس•• أو تنزل هبات سخية مجزية من الاطايب يتبرع بها جهة خير من أشخاص أو مؤسسات أو حكومات • لقد كان مايجري في الدول ذات الاقتصاد الماركسي معكوس مايجري في غيرها فالنظام الماركسي باعتراف الرئيس غورباتشوف نفسه ، وهو اعتراف مفهوم ضمنا وليس تصريحا ، كان يتجه نحو الضيق والأنكماش حتى استفحل أمرهما في أواسط السبعينات على حين كانت بلدان كثيرة في الدنيا غير الماركسية تخرج من مضايق الحرب الثانية الى السعة والوفرة ، فاليابان المهزومة تجاوزت السوفيات مدى ماكان متصورا لولا أنه موجود في الواقع • اما بلدان العالم الثالث فهو وان يكن خارج كل قياس الا ان ما هو ملحوظ فيه شيء مقارب للصورة التي عرضتها عليك الان فان بلدانه سواء منها الماركسية وغير الماركسية تعاني الضيق الا ان هناك نماذج من مثل كوريا الجنوبية وفرموزا وماليزيا ترجح كفتها بتقدمها الملحوظ كفة البلدان الآخذة بالنظام الماركسي • ولنا مثال أوضح من كل ذلك في دول نشأت وتقدمت كثيرا وقد قامت من لاشيء بأناس هاجروا من أوطانهم ، مثل كندا

والولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندة فقد تمت الهجرة للأفراد وليس للحكومات والانظمة وقامت النهضة على اكتاف غرباء حلوا بأرض في الوجه الآخر من كرة الارض بالنسبة الى بلدانهم ولم تكن لهم آلات وأجهزة تصنيعية الا في أبسط صورها مما يتوفر في المطابخ فبدأوا من الصفر • الحضارة في استراليا ونيوزيلنده ، كما اعتقد ، بدأت بالمبعدين من المحكومين في بريطانيا ••

ان عادة تعليق الغسيل على حبال الغير شائعة في الدنيا منذ القديم ولكن الخطورة كامنة بالدرجة الاولى في ممارستها من قبل الايديولوجيين لأنها تنقلب الى عمل مقدس ثوري : ان البقال اذا تذرع بعذر وهمي في دفع العتب عنه بما يعرض من فاكهة تالفة فلا هو ولا أحد غيره يقدس ذريعته ، ولكن حين قالت القيادة الصينية في احدى سنوات السبعينات ان من الاسباب الخطيرة لتأخر الزراعة الصينية وجود نسبة مئوية من المخربين والموتورين فأن ذلك استتبع اعدام ما لا يحصى من الأبرياء ، وكان البيان الرسمي الذي ذكر هذه النسبة المئوية للخونة ، قد عدد أسبابا منها الجفاف المتكرر : فاذا أضيف الى ذلك فقدان الرغبة عند الزارع الصيني الذي يشتغل بأجور يومية وفقدان الخبرة والحرص عند المشرف الحزبي فقد كفانا ذلك سببا في المحنة بلا خيانة ولا يحزنون •

بعد الكلام المقتبس آنفا يأتي مباشرة ما يلى : (ورغم ذلك تقدم الاتحاد السوفيتي وقام مجتمع تتوفر فيه الثقة لدى الناس بمستقبلهم) •

ليس التقدم المذكور باعثا على الاستغراب في شيء فقد تقدمت الدنيا كلها بتفاوت في المقدار ولكن الذى ذهب بخطورة التقدم الروسى انه كان مقترنا بسفك دم غزير ومصادرة الحريات والكرامات على صورة لم يتوقعها احد من صانعي الثورة ولا أظن احدا من خارج الثورة

ايضا توقعها • ومن افظع وجوه المقارنات بنتائجها المعكوسة ان ضراوة ستالين قتلت في الفرد السوفيتي احساسه بانسانيته على حين بعثت فيه حرب هتلر شعور الوطنية والمسئولية ، وكان من طبائع الاشياء ان تختلف ضراوة ستالين عن شراسة هتلر من حيث ان ما حققه ستالين من انجازات عظيمة الحجم في مقاديرها بالقهر والسخرة الدمويين كان مفيدا رغم كل شيء وان ما فعله هتلر لم يكن الا هدما لما هو قائم ونهب لما هو مفيد •

أما أن تكون قد توفرت لدى الناس ثقة بمستقبلهم في روسيا حسب رأي الرئيس غورباتشوف فذلك ليس بالشيء المستحيل في ذاته ولكن لا أظنه قد جرى على الصورة الهينة اللينة المسطورة على الورق فالتصفيات المتكررة على مدى تأريخ ستالين والسخرة المميتة لملايين البشر وهيمنة أجهزة القمع المؤتمرة بأمر ستالين وبيربا وسفاحين آخرين هى غيوم سوداء داكنة في حياة الناس لا تسمح بدوام الثقة ورسوخها في النفوس الا اذا فقدت الاحساس بطعم الأشياء • ثم ان الطبقة المثقفة التي بقيت تصفق وتهرج وتقدس وتعبر ضد شعورها على مدى عشرات السنين بمحصول ضخم من نصيبها في التصفيات والسجون والأبعاد لا تكون قطعا علامات طريق مضيئة نحو الخير والأمان • والشعب السوفيتي برمته لم يكافأ بجزء من مئة جزء في تضحياته المبالغ فيها أثناء الحرب فكأنها بعد كل حساب دقيق قد سقت شجرة زهو ستالين وحاشيته الشيطانية والمستفيدين من محظوظي الحزب الحاكم من دمها ودموعها وخرابها • ان شبع الدنيا وكل لذائذها وقصورها وزهورها لا يعني شيئا في جنب المسكنة والمذلة المتأتية من فقدان الارادة والاختيار ، فأن الجزار أيضا يعطي الغنم العلف ويسقيه ويوفر له وسائل السمنة فيسمن ولكنه يذبح في النهاية • ان الدرس التأريخي والانسانى والثقافي والاجتماعي الذى يمكن استيعابه من تجاريب الأيام في وجهها العام

هو أنه لا شرف فيما قد يقدمه الحاكم لمحكوميه من مقومات المعيشة مادام ثمنه هو حريتهم وارادتهم لأنهم ينقلبون بغيرهما غنما مخصصا للتسمين • يحضرني في هذه المناسبة شيء قرأته في بعض ايام تنامى النازية من أن نازيا المانيا قال لالماني سويسرى ما بالكم لا تنضمون الى المانيا وأنتم المان ؟ فقال له ، لا ننضم لسبب واحد وهو انني اذ أسمع قرع جرس الباب الخارجي صباح كل يوم في بيتي أعلم انه جرس بايع اللبن وليس الغشتابو !! انه لمن المخاطر الكبيرة ان يتم نسيان مقدار العذاب الذى يتكبده سواد الناس في مطاليب السياسيين ، لاسيما اليساريين منهم ، سواء منها ما كان يجرى طلبها بالمظاهرات او الانقلابات او بالثورات : فاذا أسقطنا الانقلابات من حسابنا لأنها في الاغلب الأعم مخاطرة يقوم بها واحد قوى أو جماعة من الأقوياء ما داعبت خيالها أية صورة لحال المساكين وكم منهم يقتل أو يهدم أو يهجر ••• بقيت المظاهرات والثورات المحسوبة من وسائل المتحضرين في التغيير • ها هنا أيضا استهانة مهلكة بوجود الجماهير وما ستكلفها العملية من دم وعناء ومال • والمشهود على نطاق العالم هو ان مثيرى الأضطراب والمستهينين بالارواح والأموال يكونون أول الهاربين الى السلامة عند اخفاق المحاولة • قرأت فيما قرأت ان النازيين في بدايات نموهم قاموا بمظاهرة يمشى في مقدمتها الماريشال لوندورف وهتلر فلما جوبهوا بقوات الحكومة وضرب النار اختفى هتلر ولكن لودندورف شد من قامته ومشى نحو غايته لا يطرف له جفن وهو يلعن ويحتقر الهاربين • ان بذل قائد الثورة والمظاهرة دمه مع المضحين هو أقل ثمن يدفعه من باب المشاركة مع القتلى وأنصاف القتلى • فهى مشاركة ادبية فقط لا ترد على الناس قتلاهم ولا تعوضهم في أموالهم • فالأمر الذي ينبغي منحه ما يستحق من الاعتبار هو مراجعة اليسار كله نفسه فيما يطالب به الناس من تضحيات ثمنا

لتحقيق هدف يفرضه عليهم ، وليكن بنية حسنة ، وليتذكر اليسار انه حين يطالبه غيره من أجنحة السياسة بموقف او تأييد فيه شيء من العناء فهو لا يكتفي برد المطالبة وانما يجاوزه الى اتهامها بشتى النعوت البغيضة فالجماهير التي لا يراجعها اليسار اصلا فيما يطلبه منها ليست قطع الشطرنج التي لا تتألم ولا اعدادا من البهائم التى لا تعى .. لذلك لا يجوز أغفال التضحيات في تحقيق هدف قد لا يكون مساويا أو مستحقا لها ، والملايين التي قتلها وشردها وسجنها ستالين فيما لم يكن اليه داع مطلقا بحساب الناس العاديين لا يمكن اسقاطها من الحساب مهما كانت النبريرات حتى بافتراض ان التقدم الذى حصل في روسيا لم يكن ممكنا حصوله بغير الدم والحديد والنار في اى وجه من الوجوه (وهو افتراض جدلى «غير صحيح» دفعا للنقاش) اذن لا كان هذا التقدم ولا كان هذا الجحيم الذى حققه : لو كان الذى حصل قد حصل برغبة الناس ورضاهم فكانوا كالغنم اذ يمد رقبته لساطور الجزار لأعفينا أنفسنا من التحسر عليهم وقلنا هذا هو خيارهم ، بورك لهم فيه وهو غير مبارك قطعا : وللتضحيات منطق لا يجوز ان تتجاوزه التضحيات أبدا . وللحسرة أيضا منطقها ولا يجوز انتحاله أو تلفيقه لاقامة المناحات ولطم الخدود . لقد اساء اليسار كثيرا وكثيرا جدا الى نفسه والى العالم اذ جعل الدموية والعنف وتجاهل الكلفة ونتائج العمل الثورى او السياسى ، بشكل عام ، ضمن محتوى عقيدته وأمرا مفروغا منه لا يحتمل النقاش ، بل أن ترسخ معنى (الثورة) على أنها اضطراب وتضحية ودم وحرق قد آل الى اعتقاد الثورى بأن ثورة تخلو من هذه المظاهر لا تعتبر ثورة حقيقية بل هى عمل اصلاحى أليق بالاسلوب الليبرالي البرجوازى الذى يسهل الانقلاب اليه في صور كثيرة على حين ان الثورة هى التي خليقة ان تفعل اى شيء يخطر على البال مهما

يكن عنيفا ظالما ومهما يكن عقيما عبثيا ومهما يكن ضد المصلحة والأنصاف ومهما يكن مؤديا الى انهيار الثورة نفسها ، ولقد امتلأ العقول بالكره الشديد لمعنى (الاستغلال) واجترارها له على مدى الدهر الى نوع افتتان بقلعه من جذوره وكأنه مرض خطير من الأمراض المعدية حتى انه لم يعد يحوز اهتمامها ان يتم قتل المكروب المرضى مع المريض نفسه وتساوى عندها حاضر مزدهر لا تملكه هى مع حاضر خراب خربته هى في مغامرة تهدف للقضاء على الاستغلال وطمعا في واقع أفضل ولا يهمها قطعا ما اذا جاء المستقبل بنتائج معكوسة لما توقعته فالمهم عندها الصدور في كل عمل من منطلق ثورى عنيف .. والكلام في هذا الباب يطول الى غير نهاية والامثلة على صدقه اوفر من ان تعد ، فأنجاوزها للقول بأن استصغار المآسى الماضية المنبعثة من العمل السياسى اللاواقعى ، ومنه الثورة ، يؤدى بالضرورة الى استصغار المآسى القادمة من عمل لا واقعى جديد : لابد من التسليم بان تجاهل مصالح الناس وآرائهم وخياراتهم في خيار يتبناه القادة ، بل حتى الانبياء ، شيء مرفوض ومدان ومشوه ومعيب فان الناس من حقهم ان يرفضوا حتى السعادة والازدهار (وهو افتراض جدلى أيضا لأنهم لا يرفضونهما) فكيف لا يكون من حقهم رفض دمار لا جدوى منه وعنف لا لزوم اليه على حين يأتى الثورى منتحلا الحق المطلق في ان يهدم الدنيا على سكانها . ان موازنة الآلام التي تجرعها الشعب السوفيتي خلال عقود كثيرة من السنين تكون في بديهية اولية هي شجب الطريقة التي تحقق بها التقدم المذكور في كلام الرئيس غورباتشوف وفي بديهية ثانوية هي اعطاء الحرية التامة للشعب السوفيتي ان يستعمل خياره الحر فيما يراه انه مصلحته . قالت آية قرآنية منذ اكثر من ثلاثة عشر قرنا توجه الكلام الى النبي محمد (لست عليهم بمسيطر) اى على صحابته من المؤمنين به

فكيف يتأتى للثـورى أن يفرض نفسه مسيطرا على ناس ليسوا مـن صحابته ولا من عقيدته ، يفعل ذلك بعد ثلاثة عشر قرنا من حكمة ظهرت في بلد قفر لم تكن به وسائل تثقيف حتى بمستوى عصره •

بعد الكلام المقتبس اعلاه يستطرد الرئيس غورباتشوف في ذكر التقدم الذى حصل في بلده محفوفا بالصعوبات مـن شتى الانواع حتـى يقول : (لكننا واصلنا السير بعناد ولم نفكر أبدا في التراجـع والتخلي عن الارض التي كسبناها أو في وضـع اختيارنا الاشتراكى محـل تساؤل) •

موقفي من هذا الكلام موقف صعب لأني اكاد اختلف فيـه مـع الرئيس غورباتشوف اختلافا مطلقا ، اذا جاز ان يبلغ الخلاف في اى شيء حدود المطلق لأنه :

اولا : ان الشعوب السوفيتية لم تكن تملك خيارا في طول التأريخ السابق على اعادة البناء حتى تستطيع مواصلة السير أو غير السير بعنـاد فهي لم تملك الا السكوت والاذعان •

ثانيا : والشعوب السوفيتية لم تكن تستطيع التفكير مستقلا عـن تفكير القادة حتى نقول انها ما فكرت في التراجع : ومن لا يستطيع مجرد التفكير لا يستطيع بالبداهة ان تفكر في التراجع او في التقـدم او في السكون : انه مدفوع الى المواقف المختلفة بأوامر فوقية •

ثالثا : والشعوب السوفيتية لم تكسب ارضا لحسابها الخاص حتى تستطيع التخلى عنها • والارض في عبـارة الرئيس غورباتشوف شيء اعتبارى يقصد به الحقوق المكتسبة والنجاحات المحققة • ولكن المؤسى المؤسف ان الفلاح السوفيتى لم يكسب ارضا حقيقية يزرعهـا لحسابه فأين هو من الأرض المجازية ؟

رابعا : ان الشعوب السوفيتية لم يكن لها ، وليس لها حتى الآن ، خيار في الاشتراكية حتى تستطيع وضعها أو عدم وضعها محل تساؤل !

لقد مر بنا في الجزء الاول من هذه الكتابة كلام نقلناه من الرئيس غورباتشوف يصارح فيه الشعب السوفيتي بأنه ليس لـه خيـار الا الاشتراكية ، فاذا كان هذا هو حظه من الخيارات في عهد البيريسترويكا والغلاسنوست فأى حظ كان له في ايام فقدان الحظ على عهد ستالين ومـا بعـده ؟

بعد الـكلام المنقول آنفا من صدر الصفحة ٤٠ مـن كتـاب البيريسترويكا تتكلم بقية الصفحة ٤٠ والنصف الاول مـن صفحة ٤١ عن وجوه المصاعب التي جابهت روسيا في مسيرتها الاشتراكية وخلق الصناعة الثقيلة من الصفر (وهذا ما لا اوافق عليه فلم تكن روسيا صفرا) يقول الكتاب في وسط الصفحة ٤١ : (لقد تغلب آباؤنا واجدادنا على كل ما واجههم وقدموا اسهاما لتطوير وتعزيز مجتمعنا في وقت كان لابد فيـه من تحرير مستقبله كله) .

هذه الغلبة على المصاعب التى نبارك فيها روسيا كلها لم تـكن قط صنع يد الآباء والاجداد بالمفهوم الحضارى الصحيح فـان هؤلاء الآباء والأجداد ما صنعوا أهم شيء كان يجب ان يصنعوه وهو تحرير أنفسهم من عبث الطغاة بهم اذن لصنعوا منع العمل المسخر والاعـدام العشوائي والسجن والتشريد و .. و .. فهل نقول انهم صنعوا هذه المآسى ضـد أنفسهم كى نستطيع القول بأنهم خلقوا الصناعة الثقيلة ؟ ماذا كان يمكن ان يكون شأن الآباء والاجداد فيما لو ارادت القوة الغاشمة المتحكمة فيهم ان توجههم وجهة اخرى لا صناعة فيها ؟

ويسأل الكتاب بعد هذا : هل كان التصنيع ضروريا ؟ اقول مـع

الكتاب ان التصنيع والمكننة وكل مظهر حضارى حديث في جميع الميادين كان ضروريا وحيويا ولكن ليس مع القهر والبوليس السرى وتحكم الطاغي والتصفية الدموية وقد ظهر في العمل ان هذا التصنيع بالشكل القهرى قد أكل حاضر الشعب الروسى على مدى حكم ستالين وعكر حياته حتى ايام البيريسترويكا ثم عقد مسار الشعب السوفيتى فيما بعد وحرك فيه الكراهية لواقعه ووجه عينه الى اشتهاء حياة ما توفرت له قط والى حرية صرعت من أوائل الثورة • اذا تخايل لاى انسان ان تقدم شعب كالشعب الروسى لم يكن ممكنا الا بالكرباج فقد كان حريا به ان يقول أيضا ان قيام ثورة تحريرية في شعب كالشعب الروسى لم يكن ممكنا الا بالكرباج وبهذا يكون منطقيا مع نفسه بشرط ان يمسح من الادب السياسى ما هو قائم ورائج من شتم ستالين والستالينية لانه يلزم من ضرورة الكرباج لقيام الثورة وحصول التقدم وجود ستالين بكل جبروته وقسوته وتنكره لانسانية الانسان •

يقول الكتاب في اواخر الصفحة ٤١ ضمن تعداد الاسباب الضرورية للتصنيع ، ما يلى : (فمنذ ١٩٣٣ بدأت الفاشية تنمو بسرعة • فأين كان يمكن ان يكون العالم الآن اذا لم يكن الاتحاد السوفيتى قد سد الطريق امام آلة الحرب الهتلرية ؟) •

اقول باطمئنان كبير ان من أقوى اسباب هجوم هتلر على روسيا في عام ١٩٤١ هو تفرغ الجيش الألماني للحرب في جبهة واحدة بعد اتفاقية ستالين وهتلر سنة ١٩٣٩ التي فتحت الباب لقيام الحرب ابتداء ثم مكنت المانيا من اكتساح فرنسا واوربا ، غير الروسية ، كلها ثم سهلت عليها توجيه جيوشها الى روسيا بعد الاطمئنان الى مؤخرتها في غرب اوروبا • يضاف الى ذلك شيء لا يجوز اغفاله في حكاية الحرب فانه مما

لا يقبل المناقشة انه لولا جهاز التصنيع الهائل لتوفير أدوات الحرب في الولايات المتحدة لما كان في امكان اية قوة ان تقف بوجه المانيا الى نهاية منتصرة فقد دخلت امريكا الحرب في السنة نفسها التي هاجمت فيها جيوش هتلر روسيا السوفيتية ووظفت كل امكاناتها لتصنيع اجهزة القتال حتى وجدناها تبلغ بانتاجها في الطيران رقم ١٨٠ الف طائرة في السنة • ثم ان اليابان احجمت عن مهاجمة الاتحاد السوفيتي بسبب وجود امريكا كقوة ضخمة دائمة الحضور توقف مطامعها • وينبغي القول ايضا انه اذا كانت المساعدات الامريكية المباشرة للمجهود الحربي السوفيتي عن طريق مبدأ (الاعارة والتأجير) لا ترقى الى مستويات متطلبات الحرب فأن مشاغلتها لليابان وللالمان بقواها الهائلة كانت عونا كبيرا جدا للجيوش السوفيتية بشكل مباشر بالاضافة الى ما كان للجيش البريطاني من دور لا يستهان به في سوح شمال افريقيا وايطاليا ثم في فرنسا بعد الغزو الحليف لها • ان وقوف الدول الغربية موقف العداء الذي لم يتخلله ضعف ولا انقطاع من الالمان منذ اليوم الاول للحرب الثانية ، على حين كانت روسيا ستالين تقاسم المانيا اراضي بولندة وتبتلع دول البلطيق الثلاث الصغيرة ، هذا الموقف كان هو العنصر الحاسم لتمكن روسيا فيما بعد من مقاومة الغزو الالماني فمن الانصاف ومن المصلحة أيضا اعطاء كل عامل من عوامل الانتصار على المانيا واليابان حقه من الاعتبار لاسيما في عهد الغلاسنوست الذي هو بطبيعته كشف الحساب وبيان الحقائق • ثم ان تضخيم دور التدخل الغربي في شئونكم عند قيام ثورتكم وخروج روسيا من الحرب يمكن موازنته لحساب الوفاق الدولي بذكر ايجابيات العلائق ولا أطلب تضخيم ذلك بأضافة اشياء لم تحصل اليه كما يجري في تضخيم السيئات وهو تضخم من جهة المبالغة في تعداد حسنات الذات وتضخيم من جهة حذف حسنات الغريم •

في نهاية الصفحة ٤٤ ، بعد ذكر الكثير من الجوانب المشرقة للتجربة الثورية والاشتراكية وهى كلها قابلة للجدل ، يقول كتاب البيريسترويكا (ان اربعة عشر من كل خمسة عشر مواطنا ممن يعيشون في الاتحاد السوفيتى اليوم ولدوا بعد الثورة : ومازال هناك من يحثنا على ان نتخلى عن الاشتراكية ، فما الذى يدفع الشعب السوفيتى الذى نما وازداد قوة في ظل الاشتراكية ، الى التخلى عن هذا النظام ؟) .

انا واحد من البشر الذين لا يجدون من حقهم الطلب الى أحد بترك ما يعتقد وهذا هو الذى يدعونى الى عدم التوجه مباشرة لنبذ هذا واخذ هذا ، وهو نفسه السبب في أنى اقول وأكرر انه ليس من حق الأحزاب والحكومات والايديولوجيات والأفراد ارغام الناس على ما لا يحبون ، فاذا كان الشعب السوفيتى ، ككل ، يريد الاستمرار في الاشتراكية فلا يحق للدول السوفيتية ان تحمله على خلاف ذلك واذا أراد شيئا مغايرا وابدى الرغبة في ترك اسلوب الحياة القديم وجب احترام هذه الرغبة ولتكن ماتكون . ولا منطق أصلا بالنسبة الى (اعادة البناء) ان يكون (الغلاسنوست) مقتصرا على بيان الرأي دون الوصول الى ممارسة الرأي فالذي اقرأه لعامة أصحاب الرأي المنشور في المنشورات التي تصلنا من الاتحاد السوفيتي في هذه الأيام هو نزوع حارق الى الخلاص من سلبيات الماضي بذاتها وبالصيغ التي تمارس فيها . ان دولا عدة مثل المجر وبولندا وغيرهما أفصحت عن رغبتها وطبقتها أيضا . ولقد أحسنت روسيا باقرارها هذه التغييرات ، بقيت أن تفعل الشيء نفسه بصدد رغبة الشعب الروسي فلربما أراد البقاء على النظام القديم أو طلب تعديله أو تبديله فهو حر في ذلك كله ولكن ليس له فرض رأيه بالقوة على شعب آخر ، وليكن مولدافيا ... من باب أولى ليس

للحكومة السوفيتية ان تتدخل في خيار شعب سوفيتي آخر عن سبيل الادعاء بأنها تمثل ارادة كل الشعوب السوفيتية في هذا التدخل منذ الثورة فهذا ادعاء انتحلته عبر التأريخ القوى الكبرى المسيطرة على مصائر الشعوب .

يستمر الكتاب فيقول : (اننا لن نألوا جهدا لتطوير ودعم الأشتراكية . واعتقد ان الحد الأدنى من امكانيات النظام الجديد هو ما أمكن الاستفادة منه حتى الآن) .

ربما كان من غير المجدي مناقشة مدى انطباق هذا (الحد الأدنى) على حقائق الأمور بسبب انه لم يحدث (حد آخر) للتقدم حتى يمكن مقارنته الى ذلك الحد الأدنى ويبدو ان صعوبات البيريسترويكا الناجمة من طول الكبت وفقدان الارادة وتحكم الارادة الفوقية في حياة الشعب السوفيتي قد هبطت في هذه الأيام بالحد الأدنى المذكور بعض الشيء وهو مايمنح المتحجرين ذريعة للهجوم المضاد على النهج الجديد رغم أن الاحباطات الحالية وليد الأختناقات القديمة وأن اعادة الغطاء الى المرجل الذى يغلي حتى يحبس بخاره من الانطلاق سيراكم مقدارا هائلا جديدا من الكتب المولد للضغط لايمكن التنبؤ معه بالأمرين الآتيين :

١ ـ قوة الأنفجار الذي سيقع حتما في مدى زمني يتناسب طوله طرديا مع مقدار القوة المذكورة .

٢ ـ التخلف الذي سيقع ثانية في عصر زادت سرعة تقدمه عن سرعة أوائل هذا القرن بما لا يفيد في تعويضه مليار حجة فلسفية .

نعم لا أرى جدوى في هذه المناقشة ، ولكن لايجوز قطعا ان ننسى الثمن الذي دفعه الشعب السوفيتي في تحقيق ذلك الحد الأدنى من التقدم

وهو تقدم ، اذا قيس الى الحد الأدنى للتقدم المنتظر من السير المعتاد الخالي من فرقعة السوط وحمامات الدم يصبح تأخرا مؤكدا لاسيما في مثل الوطن السوفيتي المملوء من خيرات الدنيا كلها أرضا وماء ومواد أولية ويدا عاملة • أسمح لنفسي أن أقول ان المساجين في المعتقلات لايجوز لهم اعتبار فسح النصف ساعة من رياضة الصباح في ساحة السجن حدا أدنى أو أعلى للسعادة والبهجة الا اذا كانت (مباهج !) السجن هي القياس والا فهي بقياسها الى حال الطلقاء جزء من الاعتقال والحرمان والنكد ! كل لقمة يبتلعها الفرد المحكوم بجبروت الستالينية هو حد أدنى من السم والعلقم المتمثل في الحد الأعلى لعذاب من تقلع عينه وتكسر ضلوعه ويعلق في المشنقة •

بقية الصفحة ٤٥ من الكتاب تناقش الافكار والافكار المضادة في الدفاع عن الثورة ومنجزاتها وكون الاشتراكية امرا نهائيا مفروغا منه ولا يمكن التراجع عنه حتى ولو اتجهت الرغبة الى ذلك • والمنطق نفسه ملحوظ في بقية صفحات الكتاب وهو في رأيي محصول منتظر من أمرين مؤكدين : احدهما هو ان المسئول الاول للدولة السوفيتية والثورة البلشفية والحركة التصحيحية لا يجد أمامه الا هذا الطريق الوسط يمشي فيه ويستطيع الاستمرار : فانه بافتراض كونه قد فقد الأيمان بافضلية ثورة ١٩١٧ ووليدتها ثورة اكتوبر فهو يكون هادما للاساس الذي يقف عليه اذا جاهر بذلك ثم لايجد بديلا في متناول اليد كي يقف عليه • ان المقدار المعتدل للافكار الجديدة التي تفشت في المجتمع السوفيتي كاد أن يقلب عالي الأمور سافلها وأدى الى تفلت ألوف ألوف المكبوتين من الضبط المنطقي فما عسى يكون من شأن اعلان الافلاس !!

وثانيهما هو أن هذا الكتاب صدر في أيام التبشير المتفائل أول ما

انطلق الصوت الجديد بالنداء الى التصحيح ولم يكن المدى اتسع بعد لظهور نتائج التجريب في طبيعة النظام المطبق منذ حوالي سبعين سنة الا بمقدار ضئيل يتشكى منه الرئيس غورباتشوف في بعض كلامه • اما بعد انكشاف الميول القوية الانعتاقية في كل ناحية من نواحى الوطن السوفيتى حتى ان غالبية شعوب اوروبا الشرقية اعلنت رفضها للشيوعية فلا أظن ان الكلام المجامل للنفس والركون الى التبرير والتأويل لتعليل ما هو مشهود من التيار الجارف المعاكس للماركسية اللينينية ، لا أظنه سياسة ناجحة أو مقنعة أو كفيلة بامتصاص نقمة الغالبية الساحقة من شعوب النظام السوفيتى والماركسى والذى أتوقعه من الدوام على هذا المنهج هو اتساع الفجوة بين أصحاب فكرة البيريسترويكا وبين شعوبهم فلا يكون عندئذ علاج للمشكلة الا باحد امرين : فأما ان يتخلى اصحاب (اعادة البناء) عن محاولة التصحيح بالرجوع الى خط المتحجرين في تصميم نهائي ومنازلة ختامية مع روح التحرر الجديدة للقفل عليها في القمقم القديم واما أن يكتسح طوفان الانطلاق ما يعترضه من معوق مهما يكن شأنه وطبيعته وليس أى من الحالين يرضى النوايا الحسنة ومريدى الخير للشعوب السوفيتية والأوروبية الشرقية خاصة وللانسانية عامة فلا طريق للسلامة الا اجتماع اصحاب النهج الجديد مع عامة الناس في جدول واحد • الا أن وجود السلطة مع الشعب في جدول واحد ليس مجرد كلام لذيذ وطبطبة على الظهر ومصافحة الرئيس للمرأوس في حرارة ، ولا هو اطلاق الحرية للناس كى ينظموا المسيرات والمظاهرات ورفع الشعارات فذلك كله ليس أكثر من السماح لربة البيت بدخول المطبخ كى تطهو طعاما فاذا لم تجد فيه سمنا وملحا وأرزا ولحما وما اليه فلا يكون طعام ولا يحزنون : والحماس للديمقراطية بحد ذاته لا يحل مشكلة ولا يدير لولبا او دولابا فلكى تكون حرية التعبير التى هى الوجه

السياسي للديمقراطية مختلطة وممتزجة بوجهها الانتاجي والتوزيعي والاستهلاكى الذى هو جانبها الاقتصادى لابد من توفر مقومات متكاملة متناغمة سوف نلم بها مجملا ومختصرا في تعقيبنا على الفقرات التى تلي مباشرة من كتاب البيريسترويكا :

في وسط الصفحة ٤٥ اربعة سطور في اطراء الاشتراكية السوفيتية تنتهي بالعبارة التالية : (ان ايديولوجيتنا نفسها حاسمة وثورية بطبيعتها)• وعلى قدر علمي بالاشياء وبمعطيات التجربة لا يوجد ما هو أقتل للابداع من هذه الثورية و(الحاسمية !) في الايديولوجيا ، فلأنها ثورية تكون رافضة لكل جرعة منعشة تأتى من خارج اطار الثورية •• وتشعر ضرورة وبداهة انها قمة الحركة والتطور على حين تكون أكبر معوق لهما • • ويوهمها الافتراض الجدلى أنها باب الأمل والخلاص للبشرية وهي ماضية في التصفيات والمصادرات والاعتقالات وعبادة الأفراد وتزويد الهرآت : ولأنها حاسمة فهي تقطع كل يد ولسان تتحرك في غير أطر الثورية والطبقية ومفاهيم الاستغلالية والرجعية : وتكون غارقة في ضباب الآيديولوجيا وسلامة صيغها وبعدها عن التحريفية بأكثر مما تتحرى الطريقة الأصح في تنمية الطماطم •• ولأنها حاسمة فأنها تبحث بالمجهر عن أى جذور للردة والانحراف في دخيلة العامل والفلاح والموجه واستاذ الجامعة وقائد الجيش بجنوده !! ولانها حاسمة فهى تصم اذنها وتغمض عينها عن اى منطق سليم يحاول التنبيه الى اخطاء ثورية وحاسمة ! في النظرية أو التطبيق : ان الحسم والثورية ليست مثل شعاع الشمس اذا طلعت أضاءت الكون بذاتها دون خطل أو خلل ، وليست في مثل اقبال المواسم الأربعة في السنة بلا حاجة الى من ينظم مواعيدها وتعاقبها : ان الحسم والثورية مفاهيم غامضة ولكنها هائلة تمارسها في الواقع ناس

مملوءون عقدا وجهلا وخوفا وضلالا ومدفوعون بالادبيات الثـــورية الى أشد المهالك تخريبا بالمجتمع ! واضاعة للحق ! وافضاء الى الباطل ! مـا عسى ان يكون فهم عامل وفلاح وعضو في مجلس السوفيتات هم أميـــون وانصاف متعلمين ، للنظرية وصفتها الثورية وحسمها في المعالجة الا أنهـا قمع لاعداء الطبقة العاملة وازالة لما هو معوق في طريق التقـــدم وتفكيك لحبكة الطبقات المستغلة ، وكل ذلك يطلب شيئا واحـــدا هـــو الحسم والثورية في التصفية والتعرية والاعتقال وخراب البيوت • الا أن هـــذا الكلام يتوضح اكثر في التعقيب على ما يليه من فقرات الكتاب • في اول الصفحة ٤٦ يتساءل الكتاب ، لماذا حدث كـل ما جعـل البيريسترويكـا ضرورية ؟ ولماذا تأخرت ؟ ولماذا استمرت اساليب العمل القديمة ؟ وكيف حدث التزمت العقائدي ؟ يقول بعدهـا مباشرة أنهـا جميعا تطلب تفسيرا ويضيف أن الحزب والمجتمع قد ادركا ان السلبيات تنمو وان الوعـــى بالحاجة الى التغيير قد افصح عن نفسه اكثر من مرة ولـكن التغييرات لم تتواصل واتسمت بعدم الثبات تحت ثقل تراث الماضى • ويذكر من هـذا الصدد محاولتين جادتين ، احداهما في سنة ١٩٥٦ (بمبادرة مـــن نيكيتا خروشيف الذى فضح عبادة ستالين وسلبياتها) ولكنها لم تستغل بشـكل كامل بسبب الاساليب الذاتية التي اقرتها القيادة في عهد خروشيف وسادها الارتجال وبذل الوعود والطموحات غير المستندة الى اساس •• والمحاولة الثانية كانت في اجتماع اكتوبر ١٩٦٤ للجنـــة المركزية (التى اقصت خروشيف عن مركزه) ولكنها وهنت أيضا مثل سابقتها وان تـــكن هى والاولى اعطتا بعض النتائج بشكل موقت •• ويقول ان جو الرضـا عن الذات بعد تغيير القيادة (يقصد تغيير قيادة خروشوف) ادى الى الركود والى اعاقة التقدم •• وانه يستنتج من ذلك :

اولا : ان الاشتراكية تملك امكانات هائلة لحل اعقد مشاكل التقدم، ولكن لا يقدم دليلا على ذلك مكتفيا ببيان قناعته وقناعة اخوانه مع ادراكه بأن تحسين الاشتراكية ليس عملية تلقائية بل هى محتاجة الى اهتمام كبير وتحليل صادق ورفض ما هو بال .

وثانيا : وهو الاهم ، وجوب الاعتماد على المبادرة الجماهيريه والمشاركة النشطة في تنفيذ الاصلاحات من قبل اوسع اقسام السكان ..

هنا نصل في الثلث الاول من الصفحة ٤٨ الى عنوان جديد هو :

ماالذي ألهمنا البيريسترويكا

ويستطرد خلاله في شرح الأمور التى مرت بدون شرح يستغرق بها من الكتاب حتى أوائل الصفحة ٥٤ . ويمكن تلخيص اهم نقاط هذه الصفحات فيما يلى :

١ - المجتمع الاشتراكى ليس شيئا جامدا يحصل التكيف مع صيغه المقررة الى الأبد فمفاهيمها تواصل التطور ويجرى اثراؤها بوضع الخبرة التأريخية والظروف الموضوعية في الاعتبار .

٢ - تعلمنا وما نزال نتعلم من موقف لينين الخلاق .. ونستخدم مناهجه العلمية وندرس مؤلفاته ، لاسيما الاخيرة منها ، مع استمرار البيريسترويكا .

٣ - ان كلاسيكيات الماركسية اللينينية قدمت لنا تعريفا للخصائص الجوهرية للاشتراكية ولم تقدم صورة مفصلة لها . وتحدثت عن المراحل ولكن يجب علينا ان ندرك متطلبات المرحلة الراهنة .

٤ ـ تواجهنا المرحلة الجديدة بالحاجة الى اعادة النظر في المسائل النظرية والافكار القائمة عن الاشتراكية بالاعتماد على تراث لينين ..

٥ ـ دفعتنا ، في الماضى ، الظروف الى قبول اشكال واساليب للبناء الاشتراكى ثم جرى تقديسها فتحولت الى عقيدة جامدة فحدثت الصورة العقيمة للاشتراكية والمركزية المبالغ فيها واهمال التنوع الفني للمصالح البشرية والتهوين من الدور النشط للناس .. ويذكر مثالا لذلك في صعوبة الظرف اثناء الحرب وانها ادت الى المركزية الصارمة في الادارة فتقلصت بها الاسس الديمقراطية لنظام الادارة في الاتحاد السوفيتى .

٦ ـ ويشرح كيفية تطور هذا التناقض بأمور : أولها ان الاتحاد السوفيتى كان يقف وحده ضد العالم الرأسمالى ، ويواجه الحاجة الى التطور السريع للتغلب على التخلف الاقتصادى (الموروث من القيصرية ومن الحرب الاولى ـ م.م) بأقامة صناعة حديثة من لاشيء ، بما فيها صناعة الدفاع ، للاحتفاظ بقدراته وخياره الاشتراكى ، فكان نظام الادارة في الاقتصاد يلبي هذه الحاجات في مركزية قاسية وتحديد صارم للاهداف ورصد الميزانية لها وقد أنجزت رسالتها . ولكن لم تكن الظروف الموضوعية وحدها داعية الى هذه الادارة فقد كانت هناك مقدمات خاطئة وقرارات ذاتية .. وبدأت الادارة في الثلاثينات والاربعينات تتناقض تدريجيا مع مطالب وظروف التقدم فأعاقت المسيرة وصارت كالدولاب الكابح فدفعتنا النزعة العقائدية الى اقتصاد (منهك) استمر في الوجود حتى منتصف الثمانينات ... فضاق الاساس الديمقراطي للادارة ولم يترك سوى مكان محدود لفكرة لينين في الحكم الذاتي للجماهير وعزل الملكية العامة عن ملاكها الحقيقين ـ العمال .. فلم يستطع المتعلمون الموهوبون الملتزمون بالاشتراكية الاستفادة الكاملة من الامكانيات الكامنة

في الاشتراكية فلقد كان العمال والفلاحون والمثقفون لهم تمثيل دائمي في هيآت السلطة والادارة ولكن لم يجذبوا على الدوام الى صنع القرارات للتطور السليم .. اكتسبت البيروقراطية نفوذا كبيرا للغاية في كل الشئون .. وان افكار لينين عن الادارة والحكم الذاتي وربط المصالح العامة بالمصالح الخاصة عجزت في هذه الاحوال ان تطبق وتطور .. والبيروسترويكا وضعت مهام للسياسة والفكر الاجتماعي الجديدين بوضع حد للتحجر ومن أجل التغلب على اثار احتكار النظرية فقد وجب اجراء تغيير حاد في الفكر السياسى كما كان يفعل لينين بقدرته على الاحساس بالحاجة الى التغيير في الوقت المناسب والى اعادة تقييم التقييم ومراجعة التوجيهات والشعارات السياسية ، ويعطى على ذلك مثالا ان لينين بعد ثورة فبراير ١٩١٧ حين رجع الى روسيا في ابريل - نيسان السنة نفسها لم يتأخر في رسم التكتيكات الصحيحة للحزب والسوفيتات بل انه أتى بستراتيجية جديدة هي الاشتراكية حتى لا تضيع المكتسبات المتحققة بانهاء الحكم القيصرى وان هذا هو نوع الجدل في التفكير السياسى الذى تعلمه (الرئيس غورباتشوف وصحبه) وهم ينفذون البيريسترويكا . كان لينين قادرا على اقناع الناس وشرح الأمور وكسب المتردد وقد وجد نفسه ان المسألة صعبة أحيانا وكتب مرة في مرارة مشيرا الى ناس انتظروا الراحة في الثورة وانه ليس مستعدا لمبادلة اية فترة من الاوقات الصعبة بالحياة نفسها في صحبة اشخاص سوقيين وسطحيين .. ويقول الرئيس غورباتشوف انه وصحبه اولوا المنظور العام للمسائل أهمية خاصة ولاسيما في اجتماع يونيه - حزيران ١٩٨٧ الكامل للجنة المركزية فلكي تكسب قضية معينة ليس ضروريا ان تقلب الأمور ثم تبدأ بالتصحيح . وان هناك مسائل جديدة لا نملك لها اجابات جاهزة وعلماء

الاجتماع لم يقدموا فيها شيئا ، والاقتصاد السياسي للاشتراكية بسبب المفهومات البالية العالقة بها لم يعد يتمشى مع جدليات الحياة • وانه يجب ان يخضع علم التأريخ لمراجعة هامة • وان المؤتمر السابع والعشرين للحزب الشيوعي السوفيتي واجتماعات اللجنة المركزية أتاحت فرصا جديدة للفكر الخلاق • وانه لايمكن ان توجد حركة ثورية بدون نظرية ثورية ••

هذا الاستعراض منى للافكار الواردة بين صفحتى ٤٦ و ٥٤ من الكتاب طال من اجل ان يحصل القارىء على صورة واضحة لما سأناقشه مكملا به ما اسلفت بيانه فيما سبق من تعليق على ما قبل الاسئلة الواردةفي الصفحة ٤٦ • ولكنى ابادر الى بيان رأيى في سبب اخفاق تجربة خروشوف وفشل عهد بريجنيف فيما يلى :

انى أرى ان خروشيف ما كان يخفق لولا فداحة الجمود والتقوقع الذى اعترى التجربة الشيوعية منذ ايام ستالين ، والى اول الثورة من بعض الوجوه ، رغم أن خروشيف كأى بشر على سطح الكوكب هذا له عيوب ونقائص ابرزها ما شاع عنه من التصرف السوقى في بعض الاحيان وما ينبعث من ذلك من ميل الى المجون والاستخفاف بالأشياء والأشخاص وذلك هو السبب الحقيقي في عدم اخذه الحيطة اللازمة لأسكات الأخصام المناهضين لحركته التصحيحية فتمكنوا من ازاحته بسهولة فلو كانت عيوبه وحدها مدعاة سقوطه فأن ستالين كان اكثر منه عيوبا مئات المرات ولكنه لم يسقط لان قبضته الحديدية كانت تحطم ، وحطمت ، كل من اخرج نأمة اعتراض أو علامة امتعاض • والمؤسف ان اسقاط خروشيف أخر الحركة التصحيحية اكثر من عشرين سنة ولو تركوه بعيوبه ومزاياه لعالج الأمور بما لم يكن يترك داعيا لصعوبات

البيريسترويكا في المستقبل • اقول هذا لا من باب فتح الفأل وضـــرب الرمل ولكن من باب منطق الأحداث ودلالة المواقف في عهد خروشيف وما سبقه وما تلاه • كان الأقدام على تحطيم صنم ستالين واخراجه مـن قبره أصعب كثيرا من كشف خطأ واضح للعيان ومن علاجه الذى لم يكن يتطلب في غالب الأحيان أكثر من تركه الى بديل يوافق الطبع البشرى ، لكن تربص شياطين النفوس الخبيثة بخلاص ملايين ملايين المضيق عليهم في دنيا السوفيت كان أفعل في الاثمار مـن تفـاؤل خروشيف • بعض الاخطاء يكون في وضوح شرب السم ، ويكون علاجه بمجرد الامتناع عن شربه • والقضية في موضوع قيام خروشيف وسقوطه أوضح مـن ان تطلب الاطالة فاغادرها الى بريجنيف :

اسمع وأقرأ ان بريجنيف كان انسانا فظا سيء الادب فهو لم يكن الطرف المناقض لما هو سيء في خروشيف بل ان فظاظته وخشونته كانت تتناغم مع قسوته التى أدامت حكمه مع روحـه الستالينية التى كرست التقوقع والبيروقراطية وتجاهل الجماهير والتنكر لمقتضيات روح العصر • وسواء ما اذا كان الحديث يجرى في اخفـاق خروشيف أو في تحجر بريجنيف فأن الجماهير العريضة لم تكن ذات دخل يذكر في مجرى الأحداث ولكنها بلاشك كانت ذات مصلحة حقيقية في نجاح خروشيف وذات خسارة حقيقية في نجاح بريجنيف • ان ما يؤبه به في التجاريب الماضية من وجهة نظر البيريسترويكا هو نبذ المناهج والأفكار والعقائد التى تلوى عنان المسيرة الى التقوقع والتشرنق والأقلاع عن فرض الرأى على الجماهير خلاف رغبتها وهو كلام يدخل في التعقيب على التلخيص الذى تقدم في فحوى الكلام ما بين صفحتى ٤٦ و ٥٤ :

الواجب الاول هنا هو تقديم الاجابة على الاسئلة التى وردت فـي

الكتاب نفسه ، بأول الصفحة ٤٦ منه ، وهى :

١ ـ لماذا حدث كل ما جعل البيريسترويكا ضرورية ؟

٢ ـ لماذا تأخرت البيريسترويكا ؟

٣ ـ لماذا استمرت اساليب العمل القديمة ؟

٤ ـ كيف حدث التزمت العقائدى ؟

هذه الاسئلة ذات مدلولات واضحة وقد تكون اجاباتها موجودة في المقدار الذى نشر في الجزء الاول من هذا الكتاب والصفحات التي مرت من هذا الجزء ولكن من الصعب استخلاص جواب واضح ومقنع من اجزائه المنتشرة في صفحات متفرقة تتباعد أوائلها من أواخرها فوجب تكثيف الجواب بجمع اجزائه في صيغة واحدة مع ما يضاف اليها من كلام أو دليل جديد .

أما الجواب على السؤال الأول فهو في ضوء المنطق المقتبس من واقع الحال في الثورة البلشفية واضح وضوح البديهية : فأنه اذا كان ممكنا أن يستبد ستالين بالدولة السوفيتية استبدادا مطلقا يشمل الوجود السوفيتى وطنا وحزبا وشعبا فأن أقرب نتائج ذلك هو حدوث ما حدث من ضمور كل شيء بدء بالانسان وانتهاء الى شتلات الباذنجان : ان التسخير والقهر والاذلال يعتصر انسانية الفرد والجماعة فيقيم منها أبنية وطرقا وقنوات وصناعة الى أن تنتهى العصارة فلا تعود تضيف أشياء جديدة مجدية وانما تركم القواقع الميتة والقشور الجافة بزيادة القهر واحكام القبضة . واذا كان جفاف عروق الأحياء ، ومنها البشر ، بشكل كامل شيئا تأباه طبيعة الحياة بما تملك من قدرة التوليد ، فأن زيادة قوة العصر ستدر منها كميات الطراوة القابلة للسيلان ثم يبدأ أنقطاع السيولة الى

دفقات متقطعة ثم الى قطرات مستنزفة • ولما كان الاستبداد المستديم هو عملية خصاء وتعقيم لقابليات الناس ومبادراتهم فهو يحكم سلفا بتعذر تعويض المعصورين عن عصاراتهم المفقودة كي يستطيعوا تقديم در دائم للحالب • والاستبداد الأرعن الأمي السادر في الجهالة يكون في العادة أقل انهاكا لقابليات الناس من استبداد مستند الى ايديولوجيا ونظرية تتسم بالقداسة وتجد في نفسها كل الكمالات البشرية وتعتبر كلايشها وقوالبها اللفظية حكما أزلية ابدية تجاوز مستلزمات الزمان • انا لم نجد في أي عصر عقيدة محددة منسوبة الى الكمال استطاعت مسايرة الزمان وأحكامه بذات نفسها ما لم تسعفها التأويلات والذرائع والتمويهات ، فاذا تعذر عليها ذلك كانت أشبه بسد مقام في مجرى الجدول يمنع سيلانه • ولا نظن ان عقيدة سماوية أو أرضية بلغت العقيدة الماركسية في قدسيتها وكمالها بنظر معتنقيها وزاد خطرها على السير الطليق أنها صارت سلطة وحكومة على حين بقيت العقائد الاخرى عبر التأريخ نصوصا يدرسها ويستظهرها ويؤلف فيها ناس من خارج السلطة ويأتي السلطان فيطبق منها ما يلائم مصلحته أو يستعير من قوانين الدنيا نصوصا تفيده اذا تعذرت الاستفادة من الشرائع السائدة • أما السلطة الشيوعية فانها استحال عليها ذلك لان الاستعارة تعني التخلي عن ذاتها والرجوع الى البرجوازية • كل الشرائع المطبقة في بلدان الأديان السماوية مزيج ، بل خليط ، من نصوص دينية ودنيوية ، لكن الشريعة الشيوعية ظلت على مدى عمرها هي هي نفسها فكيف لايصبح التصحيح بعد تراكمات ستين سنة من الفساد والقصور ضرورة حتمية ! كفى نكبة أن تستمر دولة الارض والماء على استيراد الحبوب لأحقاب من الزمان فلا تستطيع تغيير الاسلوب الأشتراكي في الزراعة بسبب من قدسية المزارع التعاونية ! كل القصور والفتور والجمود وما رافقه من تصفيات واعتقالات وابعادات وتسخيرات في البلدان السوفيتية نابعة أولا وثانيا من طبيعة النظام

المبني ابتداء على فكرة الدكتاتورية وان حدوثها بصورة عفوية دون ان يقوم بوجهها اعتراض مسموع دليل قاطع على ان عدم حدوث القصور والتقوقع هو المستغرب الذي ينهض التساؤل عليه ! ان الغنم يسمن طمعا في ذبحه فاذا لم يذبح كان ذلك موضع استغراب ، ويبقى بعد ذلك وجه استغراب حقيقي وهو أن الغنم لايستطيع التمرد على راعيه ومالكه وقصابه وآكله ، ولو تمرد بقوة غيبية سحرية كان مآله أوخم في أنياب الضواري فينقطع نسله ، ولكن عدم تمرد البشر على سجانه وقاتله ومسخره هو المستغرب الذي لاجواب على التساؤل عن سببه الا بالتحري عنه في طبيعة الواقع الذي يخضع فيه الى أشد الاحوال نكاية به ، وهو هنا الانسان السوفيتي الذي ثار بوجه القيصر ، والثورة دليل على الوعي وعلى الرفض، ثم خضع لستالين الى حدود فقدان الشعور بانسانيته : لقد ثار على القيصر الذي لم يتصف في نظره بالقداسة ثم خضع لمستبد أعتى وأقسى لانه متقدس بوصفه حامي نصوص الانجيل الثوري فلما ذبلت انسانيته وضعف احساسه بمرآى التصفيات والتعاليات والتذابحات على مدى عشرات السنين كان ضعف فاعليته في الانتاج والتنظيم أمرا مفهوما ومحتوما • ان ستالين مجرم خطير : ولكنه يحمل أوزارا لم يكن هو خالقها فقد كانت لا واقعية النظرية بحد ذاتها عائقا خطيرا أمام الأنطلاق ، وتعاليم لينين ظلت بمقام انجيل ثان حتى يومنا هذا ، والمقدار الصالح من هذه التعاليم لم يكن يستطيع الفاعلية في جو غير ملائم ولا مشجع على الابداع • ولكن يجب الاستدراك على بعض ماقلته في شأن ستالين في حمله وزر غيره كي لايكون كلامي مضللا : وهو أن ستالين استغل اللاواقعية والتراث اللينيني لأجراء ما كان يوافق هواه لا من باب الاضطرار •

خلاصة القول : ان الآيديولوجية الماركسية تحمل في طياتها كل

الاحتمالات التي ظهرت في التطبيق فاستوجبت البيريسترويكا • والكلام في هذا لاينتهي •

والجواب على السؤال الثاني : « لماذا تأخرت البيريسترويكا ؟ » انها ببساطة شديدة تأخرت بسبب زيادة قوة الكبح والتحجر والمركزية والبيروقراطية فهي استطاعت ازاحة خروشيف والاتيان ببريجنيف الذي هو ستالين مصغر ورمز التحجر • فالتأخر فيما بعد ستالين مفهوم ومشروح بقوة الكوابح المعوقة التي هي نفسها مشروحة بروح الدكتاتورية المنسوبة الى الطبقة العاملة وما كانت الا دكتاتورية سافرة لا قوة فيها للعمال وغيرهم، ولو كانت القوة محصورة بيد العمال والكادحين لما كان منتظرا ان يحدث منها أي خير أو تقدم بل ليس من المتصور اصلا ان تستطيع الطبقة الكادحة عموما ادامة السلطة والتنظيم والتقدم فهي قاصرة في ذاتها وفي قدرتها على توكيل الوكلاء فلا يعدو (دكتاتورية الطبقة العاملة) كونها اصطلاحا خاليا من المعنى وضربا من الضحك على الذات وعلى ذقون الآخرين • ومن غريب مايجري باسمها ان يرفض الحزب الشيوعي ، مثلا ، تنازل الطبقة الكادحة عن فكرة الدكتاتورية وعن اشتراكية القهر فهي أشياء مفروضة عليها من قبل وكلائها المزعومين • ان الدكتاتورية السوفيتية كانت تجربة غير مسبوقة في نهجها فهي ان تكن قد اتسمت بكل سلبيات الدكتاتورية التقليدية فقد امتازت عنها باشياء خاصة من طبيعة أيديولوجيتها فهي أتت وفي يدها شعار تدمير البرجوازية وادانة كل الصيغ السياسية والاقتصادية السائدة في العالم وكانت تتبطن من حيث تدري أو لاتدري خميرة الأنعزال عن الدنيا فهي بالاضافة الى معاداتها لكل شيء متصل بالدول البرجوازية فقد انغلقت بوجه الوافدين من عالم (الاستغلال) و (الطبقية) فادعاؤها بأنها قوطعت من العالم الخارجي ادعاء صادق في ثلثه وغير صحيح

في ثلثيه الباقيين لانها جاءت معادية للعالم الخارجي ومنغلقة بوجه العالم الخارجي وهذان هما الثلثان الصحيحان وأنها عوديت من العالم الخارجي وهذا هو الصدق الثالث • بل ان محنة عزلتها أظهر حتى من ذلك فهي قيدت حركة مواطنيها داخل حدودها وقسمت البلد الى مناطق منها محظورات كثيرة على الناس كافة • وتعدى الحظر حركة الاجساد الى حركة المعارف فكل فكر أو علم أو دعوة لاتتسق مع الماركسية محظورة بل أن أشياء معينة مقبولة في الماركسية تغدو غير مقبولة في زيادة الضيق المتأتى من (دكتاتورية الطبقة غير العاملة ـ دكتاتورية الحزب ـ المكتب السياسي ـ سكرتير الحزب) • ان العزلة المعوقة للتقدم في حالة الاتحاد السوفيتي عزلة ذاتية تستطيع ان تدوم كثيرا وكثيرا جدا وتمنع التقدم زمانا طويلا وطويلا جدا ولولا تسارع التقدم العالمي في عالم (اللصوص وقطاع الطرق ومصاصي الدماء البرجوازيين الغربيين !!!) واتساع نطاق التبادل التجاري وزيادة أسباب التواصل وفاعليتها المذهلة وعظمة نتائج التكنيك في كل الميادين لكان في الامكان وفي الاحتمال ان تتأخر البيريسترويكا حتى أواسط القرن القادم • ان بقية باقية قوية من سمات (الأنعزال الذاتي) في الدولة الماركسية لم تزل تفعل فعلها المعوق على أصعدة كثيرة ومنها أصعدة هامة اذا حصل فيها التوقف توقفت أو تباطأت السرعة في ميادين اخرى مرتبطة بها ومتغذية منها ، بل ان البلوى تصل الى حد أن يكون الخير الآتي من الخارج مردودا ومرفوضا بسبب صعوبة المتاجرة مع الأجنبي وعسر الثقة فيه وتعذر انفتاح المغاليق الكابحة للسيولة والسهولة في الحركة على الأجنبي •

اني أشعر شعورا قويا بأن التصدي لشرح ما هو منكشف بلا شرح أمر في غاية العسر على النفس ، بل انه في بعض وجوهه يضر درجة

وضوح الموضوع ، وأقول من باب المثال ان التصدي للبرهنة على ضـــوء النهار يحمل في مضامينه كون ضياء الشمس أمرا محل نزاع وانكار وشك وفي ذلك شيء من انتصار الليل من باب (مصائب قـوم عنـد قـوم فوائد) فالشك في الشمس وضوئها هو في أقل مقاديره سكوت وقتي عن ظـلام الليل • ولهذه الظاهرة أمثلة في واقع الحياة فالمعتدي يحاول اجبار المعتدى عليه على الوقوف موقف المدافع عن عدالة قضيته بأن يجعلـه هـو المدعى عليه ذلك ان صاحب الحق المحصور في زاوية الدفاع والمواجـه لشـهود الأثبات ضده يكون في أنظار المتفرجين أقل قوة من الواقف موقف المطالب بالحق والمتسلح بالشهود (وان كانوا كاذبـين) والوثـائق (وان تـكن مزورة) • ويجب القول مع هذا كله ان البيريسترويكا الحالية ، بصرف النظر عن مزايا قيادتها ، اكثر قدرة في التغلب على المتحجرين بقياسها الى الحركة التصحيحية على أيام خروشيف وذلك بسبب زخم التقدم الانساني في كل مناحيها مما جعل التوقف وتراكم التخلف والسوء شيئا مهلكا قاتلا لروسيا ودنياها الثورية البلشفية في عهد غورباتشوف ، فكان هذا دعما هائلا لقوة البيريسترويكا كان خروشيف يفتقده • اذن فالتأخر هو من مضامين الدكتاتورية المقدسة ، أقصد تأخر ظهور البيريسترويكا ، فكل مقدس ، حتى ولو كان بقرا أو صنما أو حجرا ، خليق أن يدوم حتى اذا مـــات البقر أو تفتت الصنم والحجر أقاموا غيره مكانه وينشطون فيه بأكثر ممـا ينشطون في ترميم بيوتهم ويصرفون عليه بالتقليل من الصرف على أنفسهم فيا خيبة الناس في تقديس مالايستحق الدوام وياخسارهم في تكلف الجهد والمال ضد انفسهم !!

لا داعي لاطالة اكثر في الجواب على السؤال الثاني •

والسؤال الثالث هو لماذا استمرت أساليب العمل القديمة ؟

ان هذا السؤال هو صيغة أخرى للسؤال الثاني فالذي أخر البيريسترويكا هو الذي حكم باستمرار الأساليب القديمة • ويمكن أن أضيف هنا شيئا يسري على السؤالين بالسواء وهو ان الصفة العالميةلقدسية الماركسية كانت هي أيضا دعما هائلا لتمادي الصيغة الأولى التي قامت فيها الثورة فكل قارورة تكسرها البلشفية في بيتها وكل رعونة يأتيها زعيمها في تصرفه تقابل بالتصفيق والتهليل والتعظيم من عامة اليسار في الدنيا ، فكيف يتم الاقلاع عن شيء هو هدف النظرية من جهة ومحقق لمصلحة الزعماء من جهة ثانية ومحل تعظيم من عامة المناضلين اليساريين من الجهة الثالثة وليس بأحد قدرة في داخل البلد على الاعتراض والرفض من الجهة الرابعة • والمشهود في أيامنا هذه أيضا ان الحقائق المعرقلة للتصحيح فيما مضى لم تزل موجودة في الحاضر وتعمل عملها السلبي ولكن لم تعد تملك القوة اللازمة لايقاف التصحيح ، ويضاف اليها اعتبار سلبي آخر وهو أن مرور ثلثي قرن على تعود الناس لسلوك معين وابتعادهم عن أي سلوك آخر جعل الأخذ بطريقة بديلة في المعاش والنشاط محفوفا بالعسر فهو من قبيل استعمال اليد اليمنى بدلا من اليسرى للأعسر أو تبديل السيغارة بالغليون للمدخن أو السير على الشمال لمن اعتاد اليمين في قيادة السيارة بل هو أصعب من هذا كما سيأتي بيانه بعد قليل •

وقبل الاجابة على السؤال الرابع أحب أن أبدي ملحوظة جديرة بالاعتبار في نظري وهي ان البيريسترويكا وما أدت اليه من تحول جذري في روسيا وأوروبا الشرقية ومن تطور لم يكن متصورا في علاقة الشرق بالغرب يفتح الباب للقول بأن التشنجات والاشتباكات وكل صنوف الخصام ليست قدرا مقدورا نازلا من الغيب على الدنيا ولا هي الأحتمال الأوحد المحتوم الذي لابديل له من حكم الأحوال ومقتضى المصالح بل ان الغالبية

العظمى منها هي رغبة النفوس البشرية التي تغرق في شهوتها لا في المصالح . وان مدعي العلم الواسع بالتاريخ والاقتصاد والاجتماعيات يعزون الحتمية الى الأحداث بعد وقوعها التي ما وقعت آليا أو بتسيير من المصلحة والحرب الطبقية ودساتير فائض القيمة وانما بنزوع النفوس وتحرك الرغبات واستبداد الشهوات ، فأين وجه الاستحالة لقيام البيريسترويكا قبل عشر سنين ؟ أية مصلحة قائمة بذاتها دون ذوات المسيطرين على الاقدار ، منعت حركة التصحيح ؟ وما اللعنة التأريخية المادية المصلحية التي حكمت باستحالة التقارب بين الشرق والغرب في ١٩٧٩ وجعلته ضرورة تأريخية في ١٩٨٩ ؟ أربعون سنة من اصرار الشيوعية على كونها حتمية تأريخية في تطور أوروبا الشرقية ، ثم تصبح فقاعة تأريخية في مدى اسبوعين بعد اشتداد ساعد البيريسترويكا في روسيا السوفيتية وصيرورتها سكة تمشي عليها علاقات عموم الغرب بروسيا .. أية ضرورة وحتمية حكمت بوقوف شاوشيسكو وأعوانه في وجه غالبية الشعب الروماني وكانت قبل ذلك جعلت تهريب شاوشيسكو لمئات ملايين الدنانير الى بنوك الغرب لحسابه الخاص أمرا مبتوتا فيه في محكمة التأريخ ومصالح الشعوب !! وانقلب الى اعدام شاوشيسكو نفسه أيضا بقرار من محكمة التأريخ ! اليس كذلك ؟ أم له وجه آخر ؟ التأريخ مظلوم في يد المتعاملين معه فقد أصبح لكثرة ما يعزى اليه والى ضرورته وحتميته من مساوىء الدنيا ، أصبح مخزن نفايات ومسلخ ضحايا ومحرق الأموال والأنفس ... انها الأنفس نفسها ، وليس التأريخ والمصلحة ، المسؤولة عما يجري من قباحات وهي أيضا صاحبة الفضل في كل أمر نبيل !!

والسؤال الرابع هو لماذا أو كيف حدث التزمت العقائدي ؟

حدث التزمت العقائدي ببساطة من العقيدة نفسها أولا وقبل كل شيء فهي عقيدة متزمتة ومنغلقة على نفسها ومكتفية بنفسها ومعادية لغير نفسها في كل أمر يحتمل اجتهادين ، فآراؤها في الأشياء نهائية ومناهجها للحياة والتطور والتطوير ذات صيغ محبوكة فلا تقبل التغيير أو التوسيع الا بمقدار ما تحققه من زيادة تلدها هي فتطلب مط القوالب الجاهزة كي تستوعبها • فاللينينية بعد حذفها للتملك ووصمها البرجوازية بالصفات الشيطانية تكون أخلت الميدان لنفسها خالصة مخلصة في كل شيء يتصل بالبشر وجرمت جميع العقائد السياسية وغير السياسية التي لاتلتئم معها ، ويكون تجريم أية عقيدة كانت بمقدار بعدها عن اللينينية سواء في حقل العمل أو الفكر أو دخيلة النفس فالتعارض المطلق القائم بين اللينينية وغير اللينينية هو نفسه من خلق لينين • ان العزلة في أية عقيدة تدعي الكمال والعصمة نتيجة حتمية ومباشرة لفراقها النهائى من العقائد المحيطة بها على الجوانب وداخل بيتها دونما حاجة الى ابتعاد غيرها منها وهذه حقيقة تصدق في كل العقائد ولكن أثرها العازل في اللينينية أظهر وأقوى لانها ليست عقيدة نظرية في الحقيقة المطلقة فقط بل هي الى جانب ذلك دستور وقانون وانتاج وسياسة وسلوك وثقافة وصحافة وكل شيء في حياة الشعب الممارس لها فهى بشموليتها المطلقة في معارضة غيرها من العقائد تقع حتما وضرورة في عزلة تامة لانها متفردة في القناعة الكاملة تجاه كل الأمور القابلة للجدل مما يتصل بشئون البشر بل من شأنها ان تعارض علوم الطبيعة أو التجريب أو جوانب منها اذا جاءت مخالفة لنصوصها أو تداعياتها كما فعل انصارها في تجريم علم النفس أول ظهورها •• والنتيجة التي لا تقبل الجدل في وضع كهذا هي ان الاشتراكية اللينينية في وجهها الفكرى والعملى تكون بالبداهة عرضة لأخطاء فادحة في كل أمر صدقت فيه نظرية الآخرين خلافا لنظريتها هى ، لأنها ترفضها بالبداهة والا

انهارت بالبداهة أيضا • لقد استعصى على لينين أن يهادن اصدقاء الفكريين القدامى وأعتبر أكابرهم ومشاهيرهم من غلاة المرتدين ومن خدم البرجوازية والامبريالية وخونة للبروليتاريا و •• و •• رغم ان مسافة الخلاف بينه وبينهم أقصر وأيسر كثيرا وكثيرا جدا جدا من خلافه مع الغرب ، أفليس من طبيعة نظريته أن تنغلق كلية بوجه المسيحى والمسلم والليبرالى والداعى الى التفاهم بين الناس على المصالح ؟ والنظرية اية نظرية ، يعتريها الشيخوخة بالضرورة اذا تغذت على نفسها وسدت المجال بوجه الروافد التي قد تصب فيها من مصادر الغذاء المختلفة • اما ان الماركسية اللينينية تدعى الكمال والعصمة فذلك أمر ينكشف بسهولة فهي لا تترك فجوة واحدة بين انسان الكهوف وانسان المرحلة النهائية للتطور الاجتماعي ، وهي الشيوعية ، دون أن تملأها بالتمام والكمال من أدلتها وتصوراتها المادية في المراحل التأريخية فهي بنظر نفسها اشتراكية علمية مادية فتم لها الكمال بهذين الوصفين الحاسمين • أما أنها تتبرع بالقول أن هناك مستجدات في التطور فقد احتاطت لابطال تأثيرها في فاعلية النظرية وفي صفتها الأبدية وديمومتها المتصلة بأن ادعى لها القدرة المطلقة في تقديم الحل الصحيح الشافي لأية مشكلة مستجدة واى ظرف يطرأ في الزمان والمكان • لقد صاغت الماركسية اللينينية نفسها على أنها (الظرف والمظروف ـ الشكل والمحتوى) للمجتمع البشرى منذ مرحلة الشيوعية البدائية حتى مرحلة الشيوعية العلمية التأريخية في ختام سلسلة المراحل وهى مرحلة تدوم الى نهاية الزمان التأريخي • هذه النغمة مستمرة حتى يومنا هذا ويتردد صداها في كتاب البيريسترويكا مع ملاحظة انها اضطرت الى الاعتراف بأمكان تعايش الشيوعية مع غيرها من الانظمة وهو اعتراف نابع بالأصل من العجز عن المكابرة وليس من الأهتداء الى ادراك الصواب في العقائد الأخرى أو الاعتراف بصوابها فلولا هذا

العجز لاستحال على الرئيس غورباتشوف واصحابه ان يجاهروا بآرائهم مهما تكن الضرورة ملجئة الى اعادة البناء ، وهى مكابرة من شيمة كل عقيدة تؤمن بنفسها فقط وليس لها طريق آخر تسلكه حتى يقعد بها العجز التام عن العناد والاصرار ، ولا تعدم عند ذلك أيضا ذريعة تبرر بها ذاتها في نكوصها عن دعاواها المجلجلة المزلزلة : ان طبيعة الماركسية اللينينية تبالغ في دعوى الكمال والعصمة والديمومة بمقارنتها الى العقائد الدنيوية الاخرى لأنها :

١ ـ من ناحية الزمان تشمل كل المسافة بين اول ظهور الانسان الى آخر وجوده •

٢ ـ من الناحية المكانية تستغرق الارض كلها •

٣ ـ من الناحية الانسانية تحتوى كل انسان في الأرض •

أما العقائد الأخرى فهى ذات انطقة محدودة في الأمور الثلاثة المتقدمة ، فالافكار القومية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية تشمل بعض الناس لبعض الوقت في بعض الأرض • اما الافكار الفلسفية فانها تنشغل بالأمور من جهة العلمانية والمنطقانية ونادرا ما تقدم حلولا جاهزة للتطبيق واذا فعلت ذلك فلا تحاول امتلاك وسيلة لفرضها على الناس بالقوة • فالعلم والفلسفة والفن معارف محايدة بطبيعتها حتى يصبح حاملها متحيزا الى فكرة مصلحية لها أتباع وجنود • والانعزال أو عزل النفس يكون متضررا بقدر ما يوجد في العقائد المختلفة من حقائق مفيدة لأنه حرم نفسه منها • فالسؤال عن (كيف حدث التزمت العقائدى) يجب تبديله الى صيغة اخرى هى : كيف تأخرت آثار التزمت العقائدى عن الظهور مدى عشرات السنين ؟ واظن اننا قد اجبنا على ذلك •

بعد تجاوز الاسئلة الأربعة في تفاصيل الاجابة عليها نأتى الى الصفحات التى حاول فيها كتاب البيريسترويكا كشف الستار عنها ، وهى تختلف كلية عما ذهبت انا اليه . وقد وردت فيها امور كثيرة تحتاج الى تعقيب خاص ولكنى اكتفى ببعض منها وهو ما أجده على شيء من الخطورة النسبية :

منها قوله ان الاشتراكية تملك امكانات هائلة لحل اعقد المشاكل : في اعتقادى أن هذه الأمكانات في الاشتراكية القهرية المفروضة من أعلى لها مواصفات خاصة منها اثنتان اساسيتان :

الاولى هى ان الامكان الاساسى والأظهر والأفعل في هذه الاشتراكية هو أنها بدلت نظاما كان قائما ، وهو انجاز مشترك بينها وبين الانقلابات والغزو الاجنبي . فاذا وصلت للحكم وبدأت في تنفيذ مناهجها ظهر عقمها وعجزها في كل شيء جديد ليست له تجربة سابقة . ومبلغ اصالته وضرورته وحتميته هو أن النظرية الثورية تصورت كونه من مقتضيات العلائق الأجتماعية التى كانت في رأيها محصورة ومخنوقة بيد اعداء التقدم وهو تصور طوبائى خيالى بعيد من الحق . والنظر المدقق يجد ان الفارق الحاسم بين الاشتراكية الماركسية اللينينية والاشتراكية الطوبائية هو (عامل القهر والدكتاتورية) فان الافكار الطوبائية كلها كانت ممكنة التحقيق لو مال ستالين الى تحقيقها . ان الامكانات النظرية المتصورة من اشتراكية اكتوبر فضلا عن كونها متعذرة التطبيق في الواقع على الوجه السهل الذى تبدو به في النظر وعلى الورق ، فانها بانغلاقها في وجه كل منهج ورأى خارج اقانيمها تكون قد حكمت على قابلية أخصابها بالعقم لانها حرمت نفسها من كل المعجزات الحضارية التى اوصلت بلدا أجرد مثل السويد والنرويج مديات من التقدم والشبع والأمان لا يحلم بها اى

مهووس مفتون بمقولات الكفاح الطبقى ونقض النقض والتناقض والتناطح ويكمل زينتها انها لم تزين بزخارف الدم والتصفيات ..

والثانية هى طبيعة (الاستبداد الدكتاتورى) التي تمكنها من قول ماتشاء وادعاء ماتشاء وفرض ماتشاء وهى خصيصة مشتركة بينها وبين الدكتاتوريات عامة ومن شأنها أن تستطيع تقديم بعض المنجزات السريعة أو أدامة واجهات براقة على حساب المصلحة الدائمة وبثمن قاصم للظهر من الحرية والكرامة الانسانية والتقدم المستقبلى ..

فيما عدا هاتين الميزتين لا تتصور للاشتراكية القهرية اى علامة فارقة تمهد لها وحدها المسار المفتوح الى دنيا الحلول . وأزيد الصورة وضوحا بقولى ، أو بترديد قولى ، ان الاشتراكية اللينينية الماركسية تطبق على الواقع كله بأنسانه وحيوانه وزمانه ومكانه مادة ومعنى وتوقعا واستبعادا وتقريبا ومن جميع الوجوه والاحتمالات فلا تترك مخرجا حرا مفتوحا يلج منه الفرد الى شيء أو فكر او عقيدة توافق ضميره ولا توافق مقررات الفلسفة المفروضة عليه وهذا شيء لا تتكفل به الدكتاتورية الخالصة ولا الاشتراكية غير الماركسية ولا أية فكرة دنيوية أخرى .

فالامكانات التطويرية والتجديدية في اشتراكية ماركس ـ لينين هي محدودة بحدود أو حجم (القفص الاشتراكى) المقام حول المجتمع السوفيتى ، وقد وجدنا جدار برلين وبوابة (براندنبرغ ـ كما اعتقد ان هذا هو اسمها) تجسيدا عاتيا ومذلا وفاضحا ودمويا لفكرة الانغلاق ومعاداة الانفتاح ورفض الدنيا المألوفة التى يتسكع فيها اللاهون والمتبرجزون المناكيد على هواهم .

ومن الامور الجديرة بالتعقيب عليها قوله بعد قوله الآنف في

امكانات الاشتراكية : وجوب الأعتماد على المبادرة الجماهيرية والمشاركة النشطة في تنفيذ الاصلاحات من قبل أوسع اقسام السكان •

ربما كان قصورا وعجزا منى أن أفهم الحكمة في هذا الشعار الذى هو نوع من سبق الأحداث وتطويع الآتي لحكم صادر قبلا ، فالمبادرة الجماهيرية مع كونها أمنية حلوة وعزيزة ونبيلة فهى كأى شيء قابل للنمو والتطور محصول تقدم وخبرة وتنظيم طويل النفس وقابل للانتكاس فهو أصعب من نضوج القمح والشعير خلال بضعة أشهر ومن أثمار العنب بعد ثلاث سنين أو اكثر ، ثم انها ، المبادرة الجماهيرية ، ذات ميادين يتوقف نشاطها على مشاركة الجماهير ويتطلب تماثلا في الفكر والنظر في أفراد تلك الجماهير ويستلزم دراية خاصة بكل واحد من ميادينها اذا أطلقنا للجماهير الحرية في مشاركة كل شيء ، واذا وجدنا الحكمة في تصنيف الأشياء لزم ان يتم تصنيف الناس أيضا كي يمارس كل صنف العمل المخصص له • ربما كان قصد الكتاب من هذا الكلام أن يبادر الأشخاص من كل مجموعة قائمة بعمل معين الى التحسين والتوفير والتصحيح في العمل الذى يمارسونه وليس أن يبادر حاصد العدس الى التدخل في شكل الحذاء وموديل السيارة أو مشاريع غزو الفضاء • والواقع هو أن فاعلية هذا الشعار تكاد تكون اسمية ورمزية فقط لانها منحصرة في كون (الاشتراكية) ذات مفهوم جماهيرى من حيث التسمية التى تميزها من (الفردية) • وواضح ان جرس الجماهيرية أحلى من جرس الفردية في الآذان وأكثر جذبا للمبتدئين الذين لم يجربوا واقع الاشتراكية القهرية • والمبادرة الجماهيرية مفقودة أصلا في الاعمال التى يقوم بها فرد واحد أو بضعة افراد مع العلم بأن المبادرة الفردية أيضا مفقودة في الأشتراكية القهرية فليس لسائق التاكسى أو صباغ الحذاء رأى

في كيفية العمل ومداه ووجوه ادامته وتقديمه ورفع مستواه • وبفرض ان سائق التاكسى كان ذكيا بما فيه الكفاية لأيجاد وسيلة تحسين في اطـــار السيارات فهل يستطيع ان يقوم بها وحده ؟ كلا والف كلا ! وهل يسهل عليه تفهيم البيروقراطية مزايا اكتشافه ، ومن يسمعه أو يسمح لـه ..؟ ربما كانت مصلحته في السكوت لان التجرؤ على كشف خلل في مطـاط السيارات يعتبر وشاية وتلفيقا ونميمة ضد أناس أكبر منـه مقاما وأوفر سلطانا واكثر جدارة منه بالتقديس ! ثم ان هذه المبادرة الجماهيرية في الاشتراكية القهرية مرجوحة ومتخلفة بقياسها الى مثلها في دول الاقتصاد الحر (الاقتصاد الاستغلالي !!) لاسباب كثيرة منها :

أ ـ المبادرة موجودة بفاعلية كاملة في البلدان البرجوازية حيثما كان عدد العمال في المصانع والمزارع أو المشتغلين في المرافق المختلفة يشـــكل جمهورا ، لثلاثة اسباب حاسمة :

١ ـ غالبية المعامل والمشاريع تعود للافراد والشركات فلا يواجـــه المشتغلون فيها ناسا حكوميين وراءهم النظم والقوانين والمناشير ومـــا الى هذه المحاذير الرسمية التى لا تكون مخيفة في البلدان الديمقراطية ولكنها بطبيعتها موضع توجس وتحسب لا يوجدان في المشاريع الخاصة •

٢ ـ حرية ابداء الرأى مكفولة في العمل كما هى مكفولة في أخطر مسائل السياسة ، والنقابات حماية وسند للشخص المنتمي اليها ســـواء في مواجهة رب العمل أو الحـكومة على عكس شأن النقابة في الاشتراكية القهرية التى هى وسيلة حكومية لضبط الجماهير وتسييرها في المجـــال الذى تختاره وبالشكل الذى تريده •

٣ ـ العمال يستفيدون مباشرة من التحسين والتصحيح سواء مـــن

ناحية زيادة الراحة وتقليل التعب أو من ناحية الفائدة المادية .

ب ـ المبـــادرة في صورتهـــا الفردية والجماعيـــة ، في الانظمة الديمقراطية ، تبقى كما هى من مكونات الانسان وتنمو بنمو الحضارة مـا لم يقمعها كابح كالذى يوجد في اشتراكية القمع والقهر بحذف التملك وبأذابة ارادة الفرد في ارادة السلطة والتلويح له دواما بقدسية النظرية .

ج ـ تمارس المبادرة في بلدان كالنمسا والسويد وفرنسا ... وسط جو عام من الطلاقة واستعمال الخيار الحر فهي لا تتوقف على التوجيهات الرسمية وأخذ الرخصة منها وتجنب ما يعكر مزاج السلطة ، وكثيرا مـا تكون الحرية الواسعة المعترف بها في البلدان الديمقراطية من اســباب الخلل في بعض المصالح ولكنه خلل له تبرير من الحفاظ على مبـــدأ الحرية التى هي كرامة الانسان في أعز مكوناته . ووجود جو منعش من الطلاقة العامة أكبر ضمان لصحة المبادرات وفاعليتها لأنها تكون من قبيل التصرف العادى كالاكل والشرب الذى لا يحتاج الى تحريك الشجاعـة وتعويد النفس على الاستخفاف بالمخاطر .

د ـ زيادة على وجود هذا الجو المنعش فان حق المبادرة والمطالبـة بالحقوق للعامل وغير العامل مكفول بالقوانين الناجزة مثل حق الاضراب والمظاهرة وتملك وسيلة للنشر . والعامل المأجور يستفيد مـــن هـــذه الكفالات استفادة زائـدة بـــكونه يتقاضى أجرته اذا كانت مظاهرته أو اضراباته قانونيـة . ثـــم ان القضاء في هـاتيك البلدان ذو سلطان مطلق يحتمى به صاحب الحق سواء كان وزيرا أو فراشا .. أو .. على حين ليس للقضاء في بلد كالاتحاد السوفيتى اى استقلال مهما تكن درجته بل هو في مقام اى جهاز في جسم الدولة تستغله كما تشاء (وقد اشرت الى ذلك في رسالتي الموسومة « الى العظيم غورباتشوف : تحيـة ورجـاء »

الصادرة سنة ١٩٨٨ مستندا الى كلام منشور لرئيس المحكمة العليا السوفيتية في بعض صحف موسكو على عهد البيريسترويكا والغلاسنوست ويقول فيه ما يفيد صراحة أنه لا حرية ابدا للقضاء السوفيتي ولا كفالة لحريات المواطنين من قضائية وغيرها تجاه مشيئة السلطة) • ان الحرية الفردية في الانظمة الدكتاتورية أكبر عدو تجرى ملاحقته ومحقه وسحقه ويكون ذلك أسهل في ظل سلطة تعزو القدسية الى اعمالها بزعم انها تحمى مصالح الشغيلة •

نأتى الى النقاط التى استخلصناها من الاشياء التى وردت تحت عنوان (ما الذى ألهمنا البيريسترويكا) •

أول تلك النقاط هي الزعم بأن المجتمع الاشتراكى ليس شيئا جامدا يحصل التكيف معه الى الأبد لأن مفاهيمه تتطور ويجرى اثراؤها بوضع الخبرة التأريخية والظروف الموضوعية في الاعتبار ••

لقد مر فيما تقدم من كلامى شيء كاف للاجابة على هذه الملحوظة واضيف اليه هنا زيادة توضيح لا تخلو من فائدة فأقول ان تطور الافكار المؤطرة المحددة المقدسة يكون في احسن حالاتها داخل قوقعها شأنها شأن العبادات التي لا يمكن الخروج منها أبدا بسبب ان ذلك يعتبر كفرا وهرطقة • فالاشتراكية الماركسية اللينينية تتأبى بعناد وأصرار على التحول الى منهج آخر قد يكون أصح منها وأصلح للبشر لأن في ذلك موتا لها وهي لم تقصر ابدا في الاعلان عن أنها لا تضع نفسها موضع مقارنة مع العقائد الاخرى • فهي تعيش كما هي بمفاهيمها النهائية المطلقة وادعائها انها الختام الحتمي للتطور التأريخي أو تموت موتا بالمعنى الصحيح • انها كلعبة الشطرنج تغذي نفسها من نفسها وتتلاعب بقطعها المعدودة على رقعتها المحدودة في مهارة متزايدة ولكنها ليست ولودة • كانت تجربتها

على مدى سبعين سنة مؤيدة لهذا الذي أقوله ومنطقية مع نفسها وبشاراتها ودكتاتوريتها وادعائها الدوام الأبدي لوجودها ملغية وجود غيرها • أما أن يجري تطعيمها بأفكار دخيلة عليها للضرورة واقتضاء الأحوال فهو مع كونه أحسن من الجمود الكامل الا أنه يعني أولا افلاس النظرية في المقدار الذي تستعيره من أفكار غيرها ويؤدي ثانيا الى تكرر الجمود بطغيان قدسية النظرية على هجنة الأفكار المستعارة حتى اذا كررت الضرورة نفسها بالرجوع الى استعارة الافكار كانت نتيجتها النهائية فراغ النظرية من محتواها الأصيل فكرة وتطبيقا وهي عملية طويلة تتعثر بالاخفاقات التي لا داعي اليها غير الخجل من اعلان افلاسها النهائي • وكلمة الأفلاس أقصد بها ابراز المفارقة بين دعاوى الاشتراكية الماركسية الطنانة الرنانة والنتيجة المحتملة ، بل المرجحة ، لمالها •

ثاني تلك النقاط قوله انهم تعلموا وما زالوا يتعلمون من موقف لينين الخلاق ••• وقد سبق لي بيان رأيي في وجوب ترك الموتى العظام لراحتهم الأبدية والتوجه الى الدنيا بفكر جديد وواقعية تماشى روح العصر الذي تجاوز بشكله ومحتواه تصورات أولئك العظماء فيما عدا نصائح عامة لاخطر منها ولا داعي اليها أيضا • وربما بقى لي بقية حق في قولي بان الواجب هو اكتشاف مواطن الخلل من آراء لينين وماركس التي أدت الى الأخفاق والأختناق بعد حمامات الدم وصنوف الارهاب فان من تلك الآراء طائفة ظاهرة للعيان لم تكن تصلح أصلا منهجا للحياة والتطور فكل قول مصوغ في قالب نهائي يفرض على المستقبل هو بطبيعته عدو للتقدم الا اذا كان وحيا من رب العالمين • ولكن لابد من القول بأن أكبر جانب لقوة تلك الأقوال هو اصرارها الجرىء والصارخ على أنها الحقيقة التأريخية المطلقة فالناس المنقادون لعقيدة من العقائد يكونون أطوع

لها على قدر جرأتها وثقتها بنفسها والسخاء في وعودها مع تشويه غيرها والتشهير به الى حد الافتضاح فهذا ، بكل أسف ، هو مزاج الناس الاعتياديين • ولو انعمنا النظر وجدنا ان اكثر الناس استعدادا للتضحية هم الحاملون للعقيدة الجريئة الخيالية غير المكترثة بالأرواح والأموال فالتضحية تكون جزء من العقيدة نفسها كالوضوء في الاسلام هو الباب الى الصلاة ••

ثالث تلك النقاط هي ان الماركسية اللينينية قدمت تعريفا للخصائص الجوهرية للاشتراكية ولم تقدم صورة مفصلة لها ، وتحدثت عن المراحل ولكن يجب ادراك متطلبات المرحلة الراهنة !!

ان لينين عاش سبع سنوات أولى من عمر الثورة وكان قضى عمرا مديدا في التنشئة الفكرية والتثقيفية الممتزجة بالكفاح العملي فهو كان بوضع يستطيع فيه ان يقدم خير ماعنده وقدمه فعلا •• أما الذي لم يفعله هو أنه مات قبل ان يرى بوضوح مدى الطوبائية والخيالية في الاشتراكية المفروضة من أعلى ولو رآها لبادرالىعلاجها حسب رأيى فيه ولكن علاجه لها ماكان يأتي من تبديل خطأ بخطأ مثله وانما بالغاء الخطأ مهما كان مقامه في العقيدة • أما ماركس فانه استفرغ الجهد في صياغة نظريته على نحو يضمن لها الديمومة التأريخية فيما اعتقد أنه مصلحة الطبقة الكادحة • لقد تم على يدى هذين المهندسين توصيل نهايتي السور الآيديولوجي والتطبيقي الدائر حول الاجتماع والتأريخ ، اما التفاصيل فهي شيء لايحاط به ولكنها في البنيان النظري والتطبيقي للماركسية اللينينية هي أشتات الوسائل والأساليب المحصورة ضمن السور المذكور ولايمكن ان تكون بضاعة مستوردة من خارج الأرشيف الرسمي شأنها شأن لعبة الشطرنج التي لاتعداد لحيلها وخدعها ولكنها كلها مستنبطة من قواعد اللعبة نفسها

وقطعها المحددة المحدودة ليس الا ، فلا يفيد فيها قواعد الدومينو او الكوتشينة بل لاتجوز فيها أصلا • لقد بلغت مهارة المهندسين العظيمين حدا أطبقت فيه على أفكار وأوهام تلاميذهما حيثما كانوا حتى أن البيريسترويكا تجد نفسها رهينة محبسهما بعد اكثر من ستين سنة على وفاة ثاني المهندسين فالذي أراه هو أن القصور موجود في النظرية وليس في ضعف الاستنتاج عند معتنقيها • ان الماركسية اللينينية ، كأي معتقد آخر مكتف بنفسه ، يدور بمتابعيها في حلقات مفرغة لأنها هي نفسها حلقة تامة الاستدارة اتصل منفذاها فانغلقت فلا تملك قنوات فكرية أو تطبيقية (لأن الفكر والتطبيق شيء واحد فيها) مفتوحة على مراح الدنيا خارج دائرتها المنغلقة وتجد مصداق ذلك حالا ومباشرة في الفقرة الرابعة التي نتناولها بالتعقيب اذ تقول :

تواجهنا المرحلة الجديدة بالحاجة الى اعادة النظر في المسائل النظرية والأفكار القائمة عن الاشتراكية بالاعتماد على تراث لينين ••

ها قد برز لينين في معالجات الرئيس غورباتشوف كالقدر المقدور وهو يحاول خلق مخرج للأزمة المستفحلة ذات الرؤوس المتعددة في بلده فهو يعالج نظرية لينين بنظرية لينين وقد سبق الى ذلك شاعر عربي منذ أكثر من ألف سنة اذ قال :

وداوني بالتي كانت هي الداء

لقد سبق أن بينت ان الزمن تجاوز لينين وماركس على فرض انهما كانا ولدى عصرهما ، متفهمين لمقتضياته وهذا ما لا أعتقده ولا الواقع يقبله فالأفكار الحدية مرفوضة في طبع الطبيعة ومزاج البشر ودواعي المصلحة ، وما أعظم عناء تلامذة هذه الأفكار في جهدهم الأبدي للتأويل والترقيع

ولكن (اتسع الخرق على الراقع) وهو بالأصل واسع • نغادر هذه الفقرة أو النقطة الرابعة لسبق مرورنا بها في الصفحات المتقدمة ونفضي الى النقطة الخامسة من مستخلصات عنوان (ما الذي ألهمنا البيرسترويكا) وهي تقول :

دفعتنا الظروف في الماضي الى قبول أشكال وأساليب للبناء الأشتراكي ثم جرى تقديسها فتحولت الى عقيدة جامدة فحدثت الصورة العقيمة للاشتراكية •• الى آخر الكلام المسطر في موضعه فيراجعه القاريء هناك•

كل الذرائع الواردة في الكتاب لتفسير ماحدث من تحجر وبيروقراطية في الاسلوب الاشتراكي الماركسي اللينيني لاتسم بأية خطورة في حد ذاتها لولا أنها تكتسب القداسة بكونها من أعمال وقرارات واجتهادات الأمناء على نقاوة الثورة والاشتراكية فلا توجد دولة خلت من ظروف قاهرة فرضت اجراءات استثنائية حتى اذا زالت تلك الظروف انطوت الاستثناءات آليا وعفويا في أحوال كثيرة ولكن ارتباط الأستثناء بفقرة تعيسة بائسة من انجيل الثورة يمنحها خطورة اكثر من خطورة أثر اركايولوجي تأريخي ثم العثور عليه من بين أركام من الحجارة والأتربة: قرأت في بعض ما قرأت ان الزعيم ماوتسي تونغ سبح في موضع ما من الشاطىء الشرقي للصين فتحول ذلك الموضع الى محراب تزحف نحوه جموع المفتونين بسحر الزعيم •• ان الافتتان بقدسية النظريات الثورية من شأنها ان تدفع المبهورين بها الى تصديق أية كرامة ونبوة تعزى الى زعيمهم بعد ما قضوا العمر كله في انكار الكرامات والنبوات من أساسها• اننا نعلم أن عامة الحكام يميلون الى الأستئثار والتفرد ولكن تحقيقهما أسهل على حاكم في يده كتاب متقدس يحكم هو باسمه •

ان الفقرة التي تقول في معرض تقلص الاساس الدمقراطي للقرار

الذاتي في تعاليم لينين بسبب البيروقراطية التي نشأت من الظروف الاستثنائية ، تقول ان المثقفين الموهوبين لم يستطيعوا الاستفادة الكاملة من الامكانيات الكامنة في الاشتراكية ثم تضيف ان العمال والفلاحين والمثقفين كانوا ممثلين دائما في هيات السلطة والادارة ولكنهم لم يجذبوا على الدوام الى صنع القرارات للتطور السليم ، هذه الفقرة تتضمن حقيقتين خطيرتين بشكل ضمني غير صريح ولا مؤشر اليه أتكلم فيهما منهيا بهما [وبشيء يرد حول قوله فيما بعد عن وجوب اخضاع علم التأريخ لمراجعة هامة] مناقشتي للافكار التي وردت تحت عنوان (ما الذي الهمنا ان نبدأ البيريسترويكا) • احدى هاتين الحقيقتين تستخلص من ان المثقفين الموهوبين لم يتمكنوا من الاستفادة الكاملة الكامنة في الاشتراكية • والحقيقة الثانية تستخلص من تمثيل العمال والفلاحين والمثقفين في هيات السلطة والادارة ••• وسأبدأ بالحقيقة الثانية لان الأولى ستشمل الثانية وغيرها فلا وجه لتقديمها أولا :

ان تمثيل العمال والفلاحين والمثقفين في هيكل الادارة والسلطة هو كما يتراءى لي من طبيعة حكومة ودولة لاتحتوي من أصناف البشر غير هذه الاصناف الثلاثة ، هذا التمثيل يبدو كتحصيل حاصل الا اذا اعتبرنا الموظف الرسمي المأجور على وظيفته صنفا رابعا لا نجد له مكانا ممهدا في المجتمع اللا طبقي خارج الأصناف الثلاثة وهو أمر مستبعد ولم يتناوله الكتاب بأي شرح أو تعليق • ان وجود هذه الأصناف الثلاثة في السلطة والادارة من خارج نطاقهما واحدة من الظواهر السلبية التي تبدو أنها لصيقة بالاشتراكية القهرية لأن (المثقف) الذي هو أذكى الثلاثة من بين (العمال والفلاحين والمثقفين) فاقد لكل فاعلية تنظيمية تقديمية توضيحية أو أية صفة أخرى محمودة في السلطة والادارة ، فهو من حيث

الثقافة ليس أفضل من الموظف الرسمي ويقل عنه في الممارسة العملية للأمور لأن الموظف يقوم بالتنفيذ على أقل تقدير سواء كان الأمر المنفذ صحيحا أم خطأ • ثم ان كلا من المثقف والموظف عديما الخبرة في متطلبات السوق وحاجات الناس ومستلزمات الصناعة والزراعة والخدمات فالموظف مشلول نصفيا بقياسه الى المثقف الذي شلله كامل ولا فخر ! ولنا ان نتصور حال الفلاح الأمي والعامل نصف المتعلم وهما مشاركان في لجنة تدرس أحوال سد دنيبر أو مركبة فضائية أو حاجات جامعة في سيبيريا أو تنظيم التبادل التجاري مع الكونغو أو تقدير أصح مقدار للضريبة أو الرسم يفرض على السلع أو الحرف •• أو •• أو •• ان تفتيت المجتمع الى فئات وشرائح وطبقات وأصناف بالشكل العشوائي الشائع في الاشتراكية القهرية هو في حد ذاته عقم اجتماعي بتسريب عامل فرقة وذريعة شك وسبب عداء لم يكن موجودا على الصورة الحادة والمفروضة والمحتومة من اللينينية الماركسية • لقد خلق تضخيم الفروق الطبقية في الاشتراكية السوفيتية ظرفا بليغ الضرر بالمصلحة الحقيقية غير المؤولة لمجموع الناس فقد حرمهم الثمرات الشهية التي قطفها الآخرون في جوار روسيا من الوئام الطبقي وسريان التعاون وتحكيم التفاهم في الخلافات من جهة ونصب هما لا انتهاء منه بالتشكيك المستديم في نشوء خمائر الطبقية والرأسمالية ضمن الاشتراكية العالمية ووجوب مراقبتها والقضاء عليها أول ما تظهر • قد ينجو الناس من ويلات الحرب بالهدنة أو الصلح ولكن لا نجاة لهم من شبح الرأسمالية وشكوك التبرجز والانحراف والردة ، وقد حدث ذلك في روسيا بكثرة فادحة على أيام ستالين وصاحبته التصفيات اللاانسانية التي أوشكت أن تقتل في الاحياء الباقين الأحساس بانسانيتهم • والحديث في هذا لانهاية له ••

والحقيقة الثانية المستخلصة من أن المثقفين الموهوبين لم يتمكنوا من الاستفادة الكاملة الكامنة في الاشتراكية هي ان الكلام هذا تأكيد على ان الاشتراكية ليست طريقة مألوفة للحياة الاجتماعية وانما هي بالدرجة الأولى موضوعة كالموضوعات التي تدرس في حد ذاتها كالرياضيات والفلك والجمناستيك فتطبق نتائج دراستها على المجتمع من خارجه من باب الاضافة الى شيء قائم أو فرض الشيء عليه كضرورة حتمية لامهرب منها مثل الصوم والصلاة والحج وكل هذه الضرورات المحتومات تطلب من الحياة ان تعدل نفسها بما يلائمها ـ أي الضرورات ـ وتحذف من مناهجها المحببة الى النفوس أي شيء تأباه طبيعة تلك الضرورات ، أما الأديان فانها تعوض على الناس في ترك المرغوبات الدنيوية بالنعيم الأخروي ، أما الاشتراكية المفروضة قهرا فلا تعوض أحدا في الدنيا والقيامة الا بالمقدار الذي تقدر عليه حتى ولو كان دون الكفاف • لقد وجدنا الناس من شغيلة وحرفيين وصنائعيين وزراعيين يكتشفون وجوه تحسين معايشهم حسب نبض العرض والطلب ونتائج التعامل وتساهيل التكنيك والأجهزة الحديثة وصنوف الاغراء والتجميل وقلما خابوا في ذلك فاذا واجهتهم سلبيات تفوق الايجابيات تركوا العمل الى غيره ، وليس أحد منهم راجع كتابا معينا يفرض عليهم نوعا محددا من السلع أو الدعاية أو •• أو •• ولا سأل ما اذا كان شغله يضايق نظرية اقتصادية أو سياسية أو مزاجية أو أنه يغيظ رئيس النقابة ومن يفوقه في مراتب القوة والسلطان ، ويستعينون بخير ما تصله أيديهم من المخترعات الحديثة غير متوجسين من مخالفتها لأحد أحكام المواصفات الفلسفية الطبقية وغير الطبقية أو حكمة من الحكم قالها عظيم مقدس من القادة والرادة ولا منتظرين في نشاطهم الرخصة الآيديولوجية التي يتفضل بمنحها لهم عظيم مبجل من فلاسفة المحن التنظيرية والكوارث التثقيفية • فالفرق بين العمل الحر والعمل الثوري

الاشتراكي المبرمج المهندس كالفرق بين خطى الناس اثناء سيرهم الحر في الشارع وبين (مشية البط) التي استحدثها الجنود النازيون في تمارينهم• ثم ان (المثقف) في هذه الدنيا الواسعة ينشغل بميدان الثقافة عموما وميدان اختصاصه على وجه الخصوص واغلبها الأعم أشياء فكرية الا ماندر منها في اتصاله بالعمل والتجريب • ومن أفدح الاخطار على أي موضوع كان أن يأتيه الشخص من خارجه بلا أدنى دراية أو مران فيه فيبدي رأيه في شئونه وكيفية ممارسته وامكانات تطويره فما عسى ان يفعل المثقف الاشتراكي بثقافة تأريخية اركايولوجية اذا صار عضوا في لجنة تدرس تحسين نوع من الحمام أو تهيء أحواض تربية السمك أو تبحث في ڤايروس (الأيدز ••) مثلا ! وماذا يفعل الفلاح والعامل الممثلان في كل اللجان بل استدرك وأقول : ربما أعفيا من اللجان التي تدرس أحوال الزراعة والصناعة !!

أريد أن أوضح بمثال ، كثيرا ما رجعت اليه في المناسبات ، ما أقصده من ضرر النظريات الافتراضية بالعمل المنتج : ان العصفور يخرج من عشه مع نور النهار ويدأب في جمع القوت لصغاره ولنفسه، فاذا أوى الى الراحة ليلا في عشه كان هو وكتاكيته على حال مقبول من الشبع • ولو أمكن على نحو من الانحاء تعليمه مبادىء الاشتراكية في الصيد والجمع والألتهام فانه سيموت جوعا قبل أن يفك عقدة التشابكات النظرية وما هو منها برجوازي حرام وما هو نظيف وحلال ومتى ينطلق صفارة الأذن بالأكل ومتى تأتي الصفارة المؤذنة بانتهاء وقت الاقتيات •• ومن أي الجداول يشرب وعلى أي غصن يحط وهل يطير شمالا أم يمينا !!!

ان مسألة اللجان هذه واحدة من أكبر أسباب التأخر والقصور والعجز في بنية الاشتراكية القهرية ، ولاخير يمكن توقعه من وجودها

الا من حيث أنها كابح ولجام في يد السلطة شكمت به المجتمع ، فلقد وجدنا اللجان حتى في البلدان الآخذة بالاقتصاد الحر وسيلة بطيئة ومتلكئة في الانجاز ، ولكن شرها أهون لانه محصور بالنطاق الرسمي وهو في البلدان المتقدمة نطاق ضيق في حقل الاقتصاد اذا قيس الى نطاق العمل الحر حيث لاتشكل اللجان الا للضرورة ولا يقحم فيها العمال والفلاحون والمثقفون بنص الأنجيل فاذا شكلت فان الاشخاص الممثلين فيها يكونون من ذوي الخبرة في المسائل المطروحة ومع ذلك فقد شاعت مقولة مؤداها انك اذا أردت قتل أحد المشاريع فخير الوسائل فيه ان تشكل له لجنة ..

ان النقاط التي تطلب التعليق في صفحات الكتاب من ٤٦ الى ٥٤ من الكثرة بحيث ان استيفاءها لايحتمله هذا الكتاب فاجدني مضطرا الى تركها والاكتفاء ببيان رأي نهائي في مردودات التوسل باللجان وبالرجوع الى الارشيف الثوري والتعكز على حكمة لينين وفلسفة ماركس لاكتشاف داينميكية الاشتراكية ومضمونها الغني فأقول في اخلاص شديد لما أقول : ان الاشتراكية الحقيقية التي يلدها التطور السليم كفيلة بذاتها في تحقيق التقدم غير المشروط فهي نفسها ثمرة تقدم حتمي ضروري لاغنى عنه ولا مانع له ، يحدث في أي بلد دون افتعال أو تباطل أو من باب الغرام بالتجديد ، وهي لم تقتل المبادرة الفردية ولا التملك الخاص ولا منعت فكرة غير فكرتها فاذا أرادت اكثرية الناس التحول الى مذهب اقتصادي آخر كان الطريق الى ذلك ممهدا كطريقه الى بيته وكان انجازه سهلا كسهولة اطعام الدجاج والقط الأليف ثم هو خال من مطلق العنف والأكراه ونقيض القتل والحرق والسجن في الطرف المقابل المضاد لاشتراكية القهر .

ان الركون الى اللجان في الادارة والسلطة هو اصرار على شيء

ماكان ينبغي ان يوجد أصلا فهو مظهر فارغ ومتخلف من مظاهر الثورية والجماهيرية فرضتها الثورة من باب الاجتهاد الخاطىء كنتيجة لحسن ظنها بنفسها وبما تقول وتفعل فاللجان هي اليوم أجدر الاشياء بالحذف والالغاء والتحريم من مضامين البيريسترويكا فلا المثقف ولا المتبحر ولا المخترع في مئة ميدان قادر على مايقدر عليه (الصباغ واللحام والنجار) الأميون ، كل في مجال عمله فاذا تدخل الفيلسوف في شئونهم بارت تجارتهم وقعدوا على الحديدة : ما أغرب ان يحرك الصباغ فرشاته يمينا فيردد : قال لينين .. ثم يحركه يسارا ويهتف : عاش من لا عاش ولا اعتاش .. ثم يصبغ النعل الأحمر بالأسود فيولول : اعذرني مولوتوف ، سحقا للاستعمار .. بل الأعجب من هذا ان الماركسية في جانبها الفكري ألغت (الخالق) ثم يأتي تلاميذ الماركسية فينصبون ماركس أو لينين أو ستالين أو غيرهم من البشر كائنا تام الحضور مؤكد النبوة صحيح الاستبصار عالما بالماضي والمستقبل حتى كأنه بديل ضروري عن الخالق الذي ترك فراغا بعد انكاره .

خلاصة الكلام في اللجان المفتعلة انها من آفات العصر ، تتعاظم المهالك منها بتعاظم قدرتها على التدخل في امور تجهلها تماما . وشر اللجان قاطبة ما كان منها مفروضا على الحياة بعقيدة مقدسة فرضت نفسها على الناس . ولربما كانت الحسنة الوحيدة فيها انها باب للرزق يضاف الى أعضائها الذين لايستحقون منها دانقا واحدا وهم جديرون بالعقوبة عوضا عن المكافأة .!

احذف اللجان السرطان من بياض أيام الناس ايها الرئيس غورباتشوف فيكون الغاؤها بيريسترويكا مستقلة بحد ذاتها اذا خلت منها المرافق الحياتية الخطيرة .

كل الذى قلته وما لم اقله ليس عشر معشار ما يجب قوله في اللجان من يومها الاول في سنة ١٩١٧ حتى يومنا هذا في أواخر أيام ١٩٨٩ (عدت الى هذه الكتابة في اليوم الاول من عام ١٩٩٠ بعد توقف أيام حدث خلالها اعدام شاوشيسكو) يهون الى جانب حقيقة ضخمة بضخامة أي شعب يجرى فيه الكلام : سواء كانت اللجان المذكورة في البيريسترويكا ناجحة بالمقاييس الاشتراكية القهرية كل النجاح أو فاشلة كل الفشل وسواء وجدت هذه اللجان ام لم توجد فستبقى مسألة وجوب معايشة العصر والتلبس فيه بالصيغ الموافقة لطبيعة الانسان وطبائع الاشياء هي القضية التى ينبغى ان تشغل بال أصحاب البيريسترويكا فقد عملت النظرية ولجانها من عشرات السنين على النحو الذى نعرفه من التعويق والتأخير والتضييق وما تأباه وقدة الاحساس الانسانى فيما حل بالشعوب التى استظلت افياء الثورة الطبقية او التى فرضت عليها بركاتها حتى وجدنا اوروبا الشرقية تقوم قومة رجل واحد ضد الطبقية وأحزابها ولجانها وحكوماتها ، عند اول فرصة سنحت لها بعد اربعين سنة من عذاب الويل مفهوم من رد الفعل الهائل الذى انعكس من ثورة تلك الشعوب على حكامها وقوانينهم واى شيء يتعلق بهم ومن العبث ان يحاول الكاتب الاتيان بدليل في قوة الدلالة الصارخة من رفض الطبقة العاملة نفسها في الدول الشيوعية للنظام الشيوعى المفروض بالقهر ، وهذا أمر لا يختلف فيه عاقلان منصفان فدلالته قاطعة وانكارها ضلال أو شر مبيت . فأنا افترض ان زخم الأحداث ووضوح الاتجاهات وصراخ التمنيات من العالم الشيوعى الاوربى كله قد مهد الطريق امام اصحاب البيريسترويكا للقيام بأقصى ما يمكن من الاصلاح والترميم والتصحيح الى غاية المدى التى تتسع لها الاشتراكية اللينينية ، بل افترض فوق ذلك أنه قد فتحت الابواب في الدولة السوفيتية بوجه العالم كله فيأتون اليها ويخرجون منها

بلا جواز سفر وتأشيرة دخول وخروج .. افترض هذا وغيره مما قد يخايل الذهن المتفتح للرجل البيريسترويكى في اختفاء كلى للبيروقراطية والعقول المتقوقعة فلن يفيد ذلك كله مثقال ذرة في تقديم المجتمع وتكثير الانتاج وملاحقة العصر لان ذلك كله لا يتجاوز كونه يسمح للناس بالصراخ والتجمع والتفرق والكلام اللذيذ ولعنة الماضى والضيق بالحكومة والكفر بالواقع ... لان ملاحقة العصر تعنى العيش والوجود بمفاهيم العصر واساليبه ومقتضياته ونزوعاته وطرقه المهدة الممكنة السلوك فالدول المتقدمة تتقدم لأنها تعيش عصرها لا لأنها تقوم بالمظاهرات والهتافات ورفع الشعارات ولعن الكائنات فهذه أمور مخجلة ومرفوضة ولا مكان لها عندهم : ان البيريسترويكا الحقيقية تتطلب في تحقيق أهدافها مناخ أجتماعيا سياسيا اقتصاديا نفسيا ذهنيا علميا سلوكيا على أقرب صورة من السلامة والاستواء بتعاون مقوماته المذكورة في تناغم تام بلا لهاث او افتعال او زخارف الدعاية شأنها ، الى حد ما ، شأن سائر أجهزة الجسم الحي التى تتعاون بشكل عفوى تلقائى لا يحس به صاحبها فلا هو خجلان منها حتى يتستر عليها ولا هو متفاخر بها حتى يقيم لها المهرجانات : انها طبيعة العيش المتحضر يتقارب فيه الشرطى والمحكمة والمدعي والمدعى عليه والمتفرجون في طلب سلامة الحكم ، ويجهد فيه البستانى وصاحب البستان والمسئول عن اسالة الماء ودوائر الزراعة والمتاجرون في البذور والتقاوى ومكائن الحرث والعزق ومدارس الزراعة وعلماؤها وكل المتصلين بهذا المرفق لتيسير الزرع ونجاحه والاستفادة منه .. لابد من فتح باب المصالح الرسمية وغير الرسمية امام المواطنين بلا رهبة ، بلا تردد ، بلا توقع رشوة ، بلا شك في نية الحاكم والقاضى والشرطى وموظف الارشاد الاجتماعي وقائد الجيش وبلا وجود للاجهزة السرية الطاغية الباغية التى نألفها في العالم المتخلف على أنها وسائل ضد أهل

الدار بالدرجة الاولى حتى العاشرة ثم يكون لها شأن مع الاجنبي الذى يريد بالوطن وشعبه شرا .. يجب تخلية الجو من كل عقبة امام الجهد الفردى والابداع الجماعى أو المختلط من أفراد وجماعات ورسميات واهليات .. لابد من احترام التملك والخيار الفردى في كل الميادين ضمن حدود قانون يضعه الشعب عن طريق ممثليه الحقيقيين في الانتخاب النزيه .. لابد من خضوع الحكومة للرأى العام بلا تلكؤ أو تذرع أو تمارض أو اعتذار أجوف : الصحافة وأجهزة الاعلام والاحزاب كلها تكون وسائل ميسرة طيعة للرائح والجاىء سواء كان وزيرا ام حطابا ام رئيس جمهورية ام خادمه الذى يرتب غرفته في قصر الرئاسة بحسب وظيفته لا بمعنى انه مسخر له .. الخلاصة هى ان البناء واعادة البناء تطلب مناخا متحضرا معينا على العمل والسعة والحرية والتعاون في كل مرافقه العامة من رسمية وغير رسمية يتحرك خلالها الفرد والمجموع كما يتحرك في بيته من حيث انعدام الخوف والتوجس والرهبة من المجهول فاذا كان الشروط المذكورة مفقودة في كثير أو قليل دل ذلك على انخفاض درجة التحضر والاحساس الجماهيرى بجدوى الاشياء ومضرتها ويكون واجب الموجهين والأمناء على السلطة تنمية هذا الاحساس ليس بالوعظ والكلام الجوهرى الألماسى وانما بالأساليب العملية في واقع الحياة بما يكون من أثرها الحسن والمربح والمريح للناس كافة .. الخلاصة ان البيريسترويكا لا تحقق غايتها في المجتمع السوفيتى كدولة عظمى وقوة محركة للتأريخ وركن من اركان السلام أو الحرب في الدنيا الا اذا نهض هذا المجتمع بين أنقاض النفايات النظرية والقواقع اللفظية والتعاليم المقدسة المتعفنة والقوانين المعادية لروح الانسان بكل ما خلقته من احباط لدى الناس وأصلته من شرائع فوق السماوية ودشنته من عبادة الأصنام والأزلام وكبلته من أيد ماهرة واغلقته من عيون ساهرة وادمغة مبدعة

واثارته من معارك طبقية بين ناس هم ميتون جوعا بلا معركة في اكنـــاف الدنيا •• ويمكن درج ذلك أو جله فيما يلى :

١ ـ قضاء حر مهيمن على الحكام والمحكومين •

٢ ـ مجلس تشريعي حر في انتخاب بلا قيود أو شروط كى يشرع ما يراه محققا لرغبة عامة الناس •

٣ ـ صحافة حرة غير حكومية وغير حزبية وبعبارة أخرى صحافة حرة بمعنى الكلمة يتساوى فيها الحزبي وغير الحزبي والحكومي وغير الحكومى •

٤ ـ أجهزة اعلام ميسرة للناس كافة باجورها وشروطها •

فاذا تحقق ذلك كان ما يتبعه من العمل الحـــر والتجارة الحرة والسفر الحر والبناء الحر والامتلاك الحر والحـزبية الحرة •••• الخ تحصيل حاصل ويـــكون على البيروقراطية والعقلية المتحجرة ان تلطم الخدود وتشق الجيوب وتلعن الحرية حتى تنشق لهاتها •

ان الخروج من قوقع السجن الفلسفي والثورى لا يكون الا بعملية استحالة كاملة هى في معنى ميلاد جديد للثورة البلشفية الى دنيا ما بعـــد الدم والتهديد والتشريد •

اقول هذا وليس في وسع أحد التنبؤ بما ستتمخض به الايام القادمة في العالم السوفيتى لأن الأحداث متسارعة والتحديات ضخمة وقد تعلقت الآمال الانسانية كلها بنجاح الخطوة التى خطاها اصحاب البيريسترويكا • ولربما كان المقدار المستيقن منه في جملة الموضوع هو أن خير البر عاجله وأصلح العلاج ما كان في بداية المرض •

اترك بقية الأمور التى هى بحاجة الى التعليق لأكتفى بما مضى من كلام ولألتقط عبارة واحدة فقط جاءت في السطر قبل الاخير من صحيفة (٥٣) اذ تقول : (كما يجب أن يخضع علم التأريخ لمراجعة هامة) .

لم يتفضل الرئيس غورباتشوف باى تصريح أو تلميح لما هو مقصود بعلم التأريخ وماذا يعنى عنده المراجعة الهامة ومن الذى يراجع !

تحديد هذه النقاط : ١ ـ ما هو علم التأريخ ٢ ـ ما معنى مراجعة هامة ٣ ـ من الذى يراجع ، يكون ببيان ما اذا كان غرضه القيام بالأمر على ضوء اللينينية الماركسية ومن قبل الماركسيين أنفسهم عندئذ يبقى فقط مشكلة تحديد معنى أو نطاق المراجعة وأهميتها . يبدو لي ان الرئيس غورباتشوف يقصد هذا المنحى فهو اذ بدأ في كتابة البيريسترويكا لم تكن الاحوال السهلة المريحة بين السوفيت والغرب وصلت حدا من التقارب والصفاء يتيح اجتماع علماء التأريخ في المعسكرين للاتفاق على معنى واحد محدد للتأريخ يرضي الطرفين . وفي ظرفى هذا ، وأنا منقطع القدرة عن الاستفسار من المطلعين في الاتحاد السوفيتى ، لا أملك الا حمل قوله على أنه يقصد وجوب مراجعة الماركسيين انفسهم للتأريخ في ضوء الماركسية اللينينية والتجربة الاشتراكية التى تمت خلال سبعين او ما يقارب السبعين سنة يوم كتب البيريسترويكا . فاذا كان هذا هو الغرض من قوله المذكور فقد بقى استشفاف رأيه فيما اذا كان يهدف الى اجراء تعديلات هامة في التصور الماركسى للتأريخ ام انه قصد تثبيت الاشتراكية وتمتينها عن طريق تقوية قاعدتها النظرية التأريخية بحسب ما تراآى له من الامكانات الذاتية في نظرية ماركس المطعمة باجتهادات لينين على ما يتطلبه الظرف المستجد من تنقية أو توضيح أو توسيع أو تأجيل أو تسريع أو أى احتمال آخر تفرضه الضرورة في نطاق الماركسية

اللينينية نفسها ! ان ما يطلبه الرئيس غورباتشوف مكتنف بالضباب فهو من الجهة الواحدة فتح الأبواب للنقد والصراحة وعـــدم الرضا حتى رضى طواعية بتقويض الاشتراكية وانهاء الحـــكم الشيوعي في اوروبا الشرقيه كلها وبلغ الانفتاح في دنياه السوفيتية حدا يحتمل كـل النتائج المتصورة بدأ باحتمال عودة المتحجرين الى القوة ومرورا بالحل الوسط الذى يجمع بين الاحتفاظ بالاشتراكية وتحديثها معا وانتهاء الى انسلاخ الشعوب في النظام السوفيتى من كل ما هو ماركسى وشيوعى واشتراكى قهرى • ومن الجهـــة الاخرى نراه متشددا في وجـــوب التمسك بالنظام الاشتراكى السوفيتى ومنع تسرب الافكار والانماط البرجوازية الى عالمه على ما هو مشروح ومؤكد في اكثر من موضع في كتابه • ولقد اخترت لنفسي من باب الضرورة أن افسر كلامه بأقوى الاحتمالات وهو ان يكون قصـــد مراجعة التأريخ في ضوء الماركسية مع ما تحتمله المراجعة (الهامة) مـن احتمالات التوسع الزائد والتأويل المطوط حيثما لزم الامر لأقامـــه الماركسية معتدلة على قدميها حتى لا تنهار • وسأرجع اليه بعـــد الفذلكة التاليـــة •

أما (علم التأريخ) فان لى فيه رأيا ••• ولابد من القول ابتداء ان هناك فرقا هائلا بين العلم بأحداث التأريخ ، وهو شيء متاح حتى للأمي ، وبين أستيعاب علم التأريخ ويطول فيه الـــكلام الى غير نهاية ملحوظة ، وهل هناك شيء اسمه علم التأريخ ؟

أما أن هناك ما يسمى علم التأريخ فهو كلام ان كان لا يقبل بسهولة فلا يرفض بسهولة أيضا فهـــو في احاطتـــه بماضى الأحداث والظواهر والمظاهر مرشح للاحاطة الكلية بها أو هو في أقل تقدير بمقام عالم الفلك الذى يطالع صفحة الكون فيعرف منه مقدارا يكفي لاتخاذه مبررا للحكم

عليه وعلى غيره الذى بقى خافيا عليه من حيث ان الكون مادة واحـــدة ودساتيره الفلكية والرياضية والفيزيائية سارية في الزمان والمكان فالتأريخ المعلوم للاحداث وما يلمس فيها من تقارب الأسباب مضافا اليـــه رؤيـة الحاضر بحوافزه وروادعه يوفر مادة كافية لبناء تصور منها يمـــكن ان يسمى نظرية مع شيء من التجاوز ، بسبب ان خضوع الـــكائن الحي ، لاسيما الانسان ، للدساتير ليس في ضبط خضوع المادة الميتـــة للقوانين التابعة منها والمكونة لها وأن المستقبل المنبثق من الحاضر لا يمـــكن التنبؤ بشكله وكيفيته كما يمكن التيقن من دوران الارض وحصـول الخسوف والكسوف الى آلاف آلاف السنين مع ملاحظة فارق آخر لا يسوغ تجاهله هو أن قوانين الفلك والفيزياء يغلب عليها الجانب المادى الموضوعى مـــن حيث انها كلها جزء من الطبيعة نفسها فالمغناطيس وقوة جذبه شيء واحـد وكلاهما مصدر الدساتير التى تستخلص من أحوالهما فالطبيعة بشـــتى أشكالها وخصائصها ودساتيرها شيء واحد مترابط على حين يكون علم التأريخ وفلسفته (تجريدا) خالصا لتصرف الانسان فأعمـــال البشـــر وأفكاره وعقائده ليست جزء منه حتى يكون تقعيدها واخضاعها للدساتير شيئا ماديا مثل مادية قانون ارخميدس او معادلة انيشتاين الخاصة بمقدار الطاقة الموجودة في المادة (الكتلة × مربع سرعة الضوء) فضلا عن أنـه لا توجد حتمية ضرورية في صدق نظريات التأريخ ودساتيره فقـــد تصـــدق في البلـد (س) وتخيب في البلد (د) .. فالتأريخ في رأيى علم بتجاوز بعض الشروط في (علمانية الشيء) ولكنه (علم مشروط) فيمـا يخص الماضي والحاضر اما فيمـا يخص المستقبل فانه (تخمين) فهـو بشموليته وكليته لا يكون مصيبا في توقعاته كما قد يكون الشخص المتاجر في الجلود قادرا على التنبؤ المقـــارب للصحة في مستقبـــل تجارته لان (الجلود) خيط واحد ضمن ملايين الخطوط او الخيوط المتشابكة ماضيا

وحاضرا ومستقبلا في ميدان التأريخ يضاف اليه جميعا الخيارات الممكنة الخارجة عن الحصر لتصرف البشر فهى لا يحاط بها قطعا ولا يتوقع نوع تصرفه فيها وهل كان بأمكان اى مؤرخ على وجه الارض أو في اجـــواء السماء ان يتوقـــع موت جمال عبدالناصر فتطوى بـــه صفحة مناهجه وسياساته ويأتي انور السادات فيغير كل الأنهاج والاقوال والافعـال مع ان الموت ليس خيارا من الخيارات فهو عمل الصدفة بوصفه خارجا عـن مقاييس الأحتمالات والخيارات التى تدخل في كفـــة ميزان العـــوامل والمؤثرات •• والكلام في هذا أيضا لا ينتهي الى نهاية ملحوظة فـأترك تفصيله لأناقش ، على قدر ادراكى للاشياء ، رأى الرئيس غورباتشـوف في وجوب مراجعة التأريخ مراجعة هامة وقد بينت أنه يقصد بها (مراجعة) في ضوء الماركسية ، ويتأتى من ذلك ومن منطق البيريسترويكا ان هـذه المراجعـــة تشمـــل التأريخ المفضى الى حتمية الاشتراكية بحسب نظرية المراحل الماركسية فلا أظنه يهتم بما يقوله المؤرخون البرجوازيون فـي أحوال الدنيا مستقبلا الا بمقدار كونه متعايشا مع اللينينية الماركسية شأنه شأن اهتمام الجار بنظافة بيت الجيران على قدر تأثيرها في نظافـــة بيتـه والا فليذهبوا في ستين داهية أو سبعين عافية •• مع ملاحظة ان الدعـــاء بالعافية للأغراب شيء نادر الحدوث •

ان سلوك الدرب التي لم يفصح عنها الرئيس غورباتشوف تعتوره عراقيل جمة لـكثرة مـــا يضطر فيها السالك الى القفز نحو الاحتمالات الاخرى التى استبعدها ان تكون هدف الرئيس غورباتشوف فيما قـــال لاسيما أن الرجوع الى تجاريب الاقتصاد الحر في تقويم الأقتصاد الماركسى أمر لا غنى عنه بسبب اشتراكهما في الموضوع الواحد بنظرتين مختلفتين، فأنت اذا اردت البرهنة على بطلان علم الفلك القديم القائل بثبات الارض

في مركز الكون لجأت بالضرورة الى ادلة الفلك الحديث أو اذا قارنت بين رأى نيوتن ورأى اينشتين في مسألة (الجاذبية) وجب وضع نتائج الرأيين في الاختبار التجريبي فلا يمكن استفراد النظرية الواحدة لتقويمها بعرضها على مقولاتها : فاذا كانت أدلة النظرية ، أية نظرية ، كافية بحد ذاتها للشهادة ضدها فقد ساءت حالها واستفحل وبالها وأظلم مآلها • أما صوابها في وزنها بمقاييسها هى فهو أمر محتمل ولكنه خال من كل اعتبار فالفلكيات القديمة نفسها صادقة بمقاييسها هى ، وكل الفلسفات والعقائد المتعارضة تصدق في دعواها بمقاييسها وأولياتها وفرضياتها شرط ان تكون صيغت بشيء من الذكاء •

اعادة النظر في التأريخ تكون ، عادة ، لأحدى غايتين او كلتيهما معا : فأما ان تكون لتصحيح اخطاء وقع فيها المؤرخون وراصدو الأحداث فاختلطت وتقدمت وتأخرت • وهذه عملية عضلية لا تحتاج الى تفكير الا ما كان منها متعلقا بالاشياء الأثرية القديمة التى يحتاج فهمها ثم تصحيحها الى التمكن من اللغات القديمة والخبرة في فن التنقيب والاختبار الكاربونى و •• و •• وهذا النوع من التصحيح (او المراجعة) يكون سليما اذا قام به ناس محايدون لا مصلحة لهم في هوية الاحداث والحقائق وهل هى تفيد رأس المال ام الشغيلة وهل تسند الايمان ام الالحاد وما علاقتها بحقوق المرأة من عدمها !! أصحاب الآيديولوجيات ابعد الناس من الصلاح للقيام بهذه المهمة لانهم متحيزون من لحظة خروجهم الى العمل حتى عودتهم الى مخادعهم ، حتى ان العالم المؤرخ الذى لا يمثل مصلحة معينة بذاتها لا يكون مرتاحا الى فضح خطأ يكون العالم المذكور مرتبطا به في بعض آرائه المنشورة • واما ان تكون المراجعة بنية التصحيح أو التعديل • والذي هو تصحيح الخبر فأمره

ميسور في غالب الأحوال أما تصحيح التصور أو الرأى او الاستدلال من واقعة أو مفهوم نص أو تعديل نظام وقانون وما اليها فهو بالاضافة الى كونه يحتمل الاجتهادات المختلفة من منظور الرأى الشخصى أو الموقف العقائدى فان أسلوب التعامل معه أيضا يختلف من محايد الى صاحب غرض شخصى الى متحيز لعقيدة محددة •• وكلامنا هنا يجب ان يدور حول مراجعة الشخص المتحيز العقائدى للتأريخ فهو بهذا الشكل يكون منطبقا على دعوة الرئيس غورباتشوف الى مراجعة التأريخ :

والعقائدى الذى يجد الضرورة في هذه المراجعة يكون قد وجد خللا في الاوضاع لم يكن يتوقعه كنتيجة من نتائج تطبيق نظرية يؤمن بصحتها • وله في هذا الموقف طريقان يمكن ان يتبعهما :

الطريق الأول هو طريق الصعود من الحاضر الى الماضى بحثا عن ، أو وصولا الى ، منبع الخطأ والخلل الواقع ، وهو شبيه بلف خيط (طيارة الورق) مرورا بالعقد أو التهرؤات الحاصلة في الخيط حتى اتصاله بالطيارة الورقية نفسها • وهذا الطريق يحتمل وجهتى نظر متباينتين من سالكه فقد يكون مؤمنا بصواب أصل النظرية وان الخطأ دخل في التطبيق فيتحرى عن الزمن الذي حدث فيه ذلك ، وقد يكون مؤمنا بجواز وجود الخطأ في النظرية فيريد من الرجوع بالطريقة المذكورة لمعرفة موضع الخطأ في بنيان النظرية •

والطريق الثانى هو تركيز النظر في نصوص النظرية من البداية لمعرفة مواضعها التى يمكن ان ينبع منها الخطأ في التطبيق أو يظهر ما فيها من خطأ عند التطبيق اى ان الخطأ موجود في بعض مواضع النظرية على وجه الأحتمال • وكلا الطريقين له تفاصيل وتوسعات قد تكون أفدح مغبة من أصل الخلل المراد علاجه بما يثيره من خلاف حاد وتفاوت مبالغ

فيه في وجهات النظر ولكن نفترض هنا ان اجماع النية على وجـــوب مراجعة التأريخ في عهد الفلاسنوست كفيل باستبعاد المخـــاطر المـــائلة لمـــا ذكرت ..

أقول في صدد الطريقين السالفين وأى طريق آخر يمكن اتباعـــه من وجهة نظر نتائج عملية المراجعة : ياترى ما هو المنتظر مـــن مراجعـــة تأريخ أفرغ في قالب المراحل المعلومة وتم ربط مرحلة بمرحلة أخـــرى في احكام نظرى شديد الحبك وتم اعتباره حتمية تأريخية لابد للبشريـــة أن تجتازها تباعا حتى تصل الى الختام الذى لا يوجد بعده ختام آخـــر وهو المرحلة الشيوعية المبنية ، افتراضا ، على اساس (من كل ما يستطيع ولكل ما يحتاج) وكفى الله الناس شر الخصام فلا طبقات دنيـــا وعليـــا ولا تفاوت اجتماعى من سيد الى مسود ولا أى سبب من اسباب التمـــايز يمكن أن يقلق المجتمع . انا اعلم بالمنطق منذ زمن وأرى واسمع مـــن التلفاز بُعد هذا التفاؤل النظري عن ان يتحقق بالقهـــر والسخرة وكـــتم الانفاس ولـــكن أتجاهل هذه الحقيقة وأفترض جدلا ان الماركسية وحدها أو الماركسية اللينينية قادرة على ايصال البشـــر مشـــارف النعيم والسعادة الأبدية ، وان الخيبة حصلت جراء اخطاء في التطبيق ونوايا شريرة لهـــذا وذاك وعرقلة شيطانية من دول الغرب فما الـــداعى اصلا الى مراجعـــة التأريخ ولم لا ينصب الجهـــد على كشف مواطن الخطـــأ وفساد الصيـــغ التي أفرغت فيها الأفكار الثورية وفضح الجذور الطبقية للمنحرفين لأن مراجعة التأريخ تتصدى للنظرية نفسها فقد أتت الماركسية بنظرية تأريخية سميناها أو سمينا ثمرتها (الاشتراكية العلمية) وقد احتوت صيغها الكون كله حتى فرضت جدليتها على الطبيعة نفسها فما هو هذا التأريخ الـــذى أفلت من طوق الماركسية حتى نراجعه مع ان الماركسية نفسها هى تأريخ

في جملتها فقد أتت بتصور أو نظرية أو كشف علمي مادي مبرهن تناول فيه العالم كله في عمومياته ثم استوعب (الانسان) بماضيه وحاضره ومستقبله تأريخا واجتماعا وعلما وعملا وجهلا وغيره فهو تأريخ وسع كل التواريخ وفند كل التواريخ وانتصب منذ اواخر القرن الماضي مصباحا ضخما يبشر ضوؤه المسحوقين بيوم الفرج وتفاني في تقديسه ألوف العباقرة وانصاف العباقرة في جهة اليسار وقامت به المظاهرات والتشنجات والتمردات والاعتصابات والثورات والحروب على نحو دمغ العصر بميسمه فما أظن ان بقعة من الارض خلت من أثر كيه واستمر نغم التقديس المتصل المستديم له وان يكن قد جرى فيه شيء من الخفوت بعد انكشاف شيطنة ستالين ولكن ذلك لم يؤثر في خطورته بل ان كثيرا من التشنجات العنيفة وصلت الى الحكم باسم الماركسية في اكناف العالم بعد عهد ستالين ولم يزل حتى يومنا هذا موضع تقديس عند ناس كثيرين جدا كرهوا البيريسترويكا لأخلالها في نظرهم بالقواعد الماركسية المؤسسة على الثورية الحقيقية ، بل ان الرئيس غورباتشوف نفسه يعلن ارتباطه بها ارتباط تلازم مصيري في كتابه • اذا ما هو هذا النقص الموجود في تأريخ صاغه ماركس وأكمله لينين ؟ واين الفرق بين خلل في التأريخ المؤشر اليه في كلام الرئيس غورباتشوف وبين خلل في الماركسية اللينينية نفسها ؟ هذه التساؤلات لا جواب عليها عندي الا في احتمال واحد هو أن يكون عالما بالخلل في النظرية ولكن لا تسمح له ظروفه بكشفه صراحة فاستظل برواق (مراجعة التأريخ) للوصول الى علاج ذلك الخلل دون ان يتعرض لرذاذ الانتقادات التي لا لزوم اليها •

على انى أترك الموضوع باحتمالاته كلها لاقول قولا في خطورة وعدم خطورة مراجعة التأريخ شاملا به ما قصده منها الرئيس غورباتشوف

اضافة الى ما ينجم من رأى أو تصور اثناء الاستطراد •

حصلت مبالغة زائدة في نسبة الخطورة الى عملية مراجعة التأريخ حتى كأن فهمه على ما كان يفهمه به اهل العصور التى تتم المراجعة لازمانهم هو منقصة وجهل وقصور فلم يعد يليق بأهل عصر النور المفتون بالتسبيبات ان يترك عصر الاسكندر المكدونى واحداثه واشخاصه تتحرك على هواها دون قائد من فكر أيامنا فلابد للعثور على اسباب منطقية بمقياس علم التأريخ الحديث ان يعاد نبش ايام دارا الأخمينى المعاصر للاسكندر لألباسها ثوبا يليق بكل المناسبات ويجيب على كل التساؤلات ويدفع جميع الهمزات واللمزات • لم يعد شخص الاسكندر ودارا وبضعة رجال آخرين كانوا في قمة المسئولية كافيا لشرح تصرفات الاسكندر فلابد من رفع التناقض بين ميله الى التعمير والى الفتوح المسببة للتدمير فلا يسمح له العلم والمنطق وضرورة الأحوال ان يكون معمرا ومدمرا في وقت واحد • ومن الغريب حقا ان يتوهم المؤرخ والفيلسوف كونه ادرى بنفسية الاسكندر ورغباته وعلة تصرفاته من الاسكندر نفسه على حين يثور الفيلسوف والمؤرخ اذا قيل له ان فلانا من علماء النفس أدرى بك من نفسك في فهم تصرفات وآراء غير ملائمة تصدر منك ، واغرب من ذلك ان يرضى المؤرخ والفيلسوف لنفسه الجمع بين ادعاء العلمانية ونبذ عبادة الفرد وبين عبادة ماو وستالين ولينين ولا يرضى للاسكندر أن يبنى المدن والمكتبات ثم يتكلف مشاق المهالك في الفتوح والغزوات • على اى حال لا نركن الى مقولات علماء التأريخ غير المتطابقة مع تصرفاتهم فلعلهم ان يكونوا مصيبين في حكمهم على غيرهم من الناس، وما كان قصدى من ذكر المثل السابق الا جلب انتباه القارىء الى كون العلماء والفلاسفة واصحاب النظريات بشرا مثلنا يفعلون ما لا يعتقدون

فكان من همى ان اشير الى ما في ذلك من تفسير لعدم تطابق اقوال وافعال رجال التأريخ قبل الوف السنين دونما حاجة منا ومنهم الى اهدائهم مصابيح نيون هذا العصر العلماني كي يفهموا على نورها في قبورهم ازدواجية احوالهم .

لابد من جملة معترضة قبل مواصلة حديثى عن التأريخ : أفلا يرى القارىء معى ان الحاضر نفسه يحتاج الى مراجعة فهو أوضح للنظر والصق بمصالح الناس وأدعى الى استكناهه لعل وعسى ان يقود فهمه بعمق مع تبين وجوه اسباب الخلاف ودواعي الوفاق في مضامينه ، ان يقود خطى الحكومات والشعوب الى دروب السلامة حتى لا يكون الرعب النووى هو العامل الحاسم الوحيد في الدعوة الى السلام فان ذلك يربط السلام بسبب واحد ، فاذا زال هذا السبب بالاتفاق على تدمير أسلحة الانقراض خلت ايدينا من اسباب قوية اخرى مدروسة بعد اكتشافها في (مراجعة الحاضر) تمنع الحرب صغيرها وكبيرها ، ثم ان تفادى الخراب رغم خطورته التى لا تقدر بسهولة لعظم مقامه في الامن والاستقرار وبقاء النوع الانسانى ، لا يكفى وحده لتمطر علينا السماء المن والسلوى لان منع الحروب هو (امتناع) محض ويشبه حالة جائع أو مريض أو مقرور نتركه بلا قتل فسيقتله الجوع أو المرض أو البرد الشديد ، وفي دنيانا مئات الملايين من البشر لا يكادون يهتمون لقيام الحرب بسبب استفحال مشاكلهم المعاشية أو الأمنية .

ترى ان مراجعة الحاضر والدعوة اليها أمر سهل ومفيد ومطلوب باصرار ولكن كيف تتم ؟ وما وجهات النظر في تقدير المصالح ؟ واذا كان العالم قد تفرق الى الف طريقة للفكر والعقيدة والمنهج وكثير منها في قتال مع غريمه أو جاره أو عشيره فكيف يسمعون صوتى وصوت غيرى

ليكفوا عن شيء انساقوا اليه كما أنساق انا الى الكتابة وتنساق انت الى بناء معبد أو مستشفى أو الى شراء سيارة ؟ اقول مع القائلين ان الاتفاق ممكن على الاشياء التى يفيد الاتفاق عليها جميع اطرافها ، والحقيقة هى ان هذا الاتفاق حاصل في احوال كثيرة بلا استاذ يلقن الناس الأخلاق الحميدة ولكن (الرؤية) الخاصة بكل طائفة أبقت مساحات هائلة للتذابح والتناطح مستعصية على التفاهم فيها : بناء معبد هندى الى جوار مسجد مسلم اجرى دماء غزيرة ! أسلحة الفتك غير الذرية تملأ السوق الحرة والسوق السوداء ! اصرار شاوشيسكو على مواصلة قهره ونهبه لرومانيا اودى بحياة الوف الناس وخراب كثير من العمران ! مشكلة جنرال بنما (نورييغا) قلبت حياة شعبها الى جحيم ، فترة لا بأس بطولها. ان مراجعة الحاضر رغم خطورتها وضرورتها ووضوح حقائقها شيء لم تنضج مقوماته بعد ، ثم هى ليست من مهمات هذه الكتابة ولا هى تقبل الانضغاط حتى يستوعبها وقتى وطوق كتابتى ، وما أشرت اليها الا من باب جلب الانتباه الى مثال في متناول اليد يمكن قياس (مراجعة التأريخ) منه لتكوين صورة مقاربة للحقيقة في مدى سهولتها وصعوبتها وامكان تنفيذها . ومن هنا أقول انه اذا كانت مراجعة الحاضر شبه متعذر لتعدد الأطراف المتخالفة وصعوبة الاقلاع عن نقطة الخلاف وعسر التفاهم على صيغة ترفع الخلاف في الوف المسائل المطروحة فكيف يكون موقفنا من مراجعة التأريخ في ضوء الملاحظات الآتية :

اولا ـ ضرورة مراجعة التأريخ لا ترقى الى واحد من مئة من ضرورة مراجعة الحاضر لان قصارى خطورة فهم التأريخ هى ان تكون مفيدة للاحياء حاضرا ومستقبلا ، واكبر مديح لها هو اعتبارها خلفية مضاءة لمنظر في لوحة حتى لا تختلط حافاتها بالعتمة من حولها . والواقع

هو ان السهولة النسبية لمراجعة التأريخ بقياسها الى صعوبات مراجعة الحاضر آتية من قلة خطورة المراجعة التأريخية بحد ذاتها فهى تناقش احداثا واشخاصا مضت وأفكارا بقيت أو استنتجت وليست نفطا يباع وتجارة تزاحم ومناطق نفوذ تقسم .. قلة الخطورة هذه للمراجعة التأريخية هى نفسها السبب في عدم الاقبال عليها وتكلف تنفيذها : فهى سهلة نسبيا لانها غير خطيرة . وهى مهملة ايضا لانها غير خطيرة ..

ثانيا ـ اذا كانت مراجعة الحاضر تتولاها جهات رسمية بحكم الضرورة ، شأنها شأن تمثيل اى بلد بممثل رسمى في السفارات وفي الأمم المتحدة والاتفاقات الدولية ، فأن مراجعة التأريخ تأبى بطبيعتها ان تحتكرها الحكومات القائمة لانها ليست الجهة الثقافية العلمانية التأريخانية المرشحة للقيام بشيء فوق مداركها فالماضى غير الحاضر من حيث الوضوح ومن حيث الموضوعات ومن حيث البدائل فوجب اشراك كل جهة لها قضية تدافع عنها وتكون حصيلته مشاركة اعداد هائلة من البشر لا يحويهم قيعان ووديان ولا يتم تفاهمهم خلال لغات غير معروفة وقضايا غير مشهورة . فاذا حصل الاكتفاء بالمؤرخين وامثالهم من اصحاب الرأى المشهود لهم بالدراية والتضلع في الشئون البشرية مضافا اليهم ممثلو الحكومات والدول ذات الشأن وهو أضعف الأيمان والقدر الممكن المتصور للمحاولة ، ثارت مشاكل كثيرة أهمها مشكلتان من منظور هذه الكتابة : الاولى هى عسر اتفاق اولئك الناس على تحديد المشاكل والحلول وفرز الصحيح من الخطأ وتمييز العادل من الظالم والفاتح من المفتوح والقاهر من المقهور فالملحوظ في الواقع الماثل ان الوطنى في شعب ما يعتبر خائنا في نظر شعب آخر مشتبك معه في خلاف وهكذا .. والثانية هى انه بافتراض اتفاقهم على صيغ مقنعة لهم فسيئول امرها الى فرضها

على عامة الناس بالقوة لعدم حصول مشاركتهم في صوغها فأمتنع بذلك توافقها مع آرائهم ومعتقداتهم ومصالحهم (صورة مصغرة لهذه المشكلة قائمة الآن في رفض جماهير الشعب البلغارى لحل مشكلة الاتراك منهم بالصورة التى أقرتها حكومة بلغاريا الجديدة) .

بعد هـذا المشوار الطويل في قلب مسألة مراجعة التأريخ على وجوهها المختلفة أقنع نفسى بمناقشة موضوعها في ضوء كتاب البيريسترويكا على أنها تعنى مناقشة التأريخ وعلم التأريخ المصبوب في هيكل التصور الماركسى ومن قبل الماركسيين الروس أنفسهم : مؤرخون من البلاشفة يراجعون التأريخ كله عامة والجزء الواقع منه في حياة ماركس خاصة ، والقسم الاخير منه الواقع في نطاق التجربة الاشتراكية منذ ١٩١٧ بصورة أخص .. وأسلم جدلا بأن ذلك منطقى لا يتنافى مع التصور الشيوعى بان الماركسية علم تام الصحة وانها هى وعلم التأريخ شيء واحد لاشتمال الماركسية عليه فيما تشتمل :

ترى أين المدخل للمحاولة في التحرى عن الخلل ضمن شيء هو تام الصحة ؟

وكيف العثور على بديل صالح للجزء المختل من الماركسية نفسها مادام اللجوء الى غيرها في سد النقص وعلاج الخلل مستبعدا منذ البداية ؟ والسؤال هذا سؤال قسرى مرفوض في منطق الماركسيين لايمانهم بكمال الماركسية لان التماس البديل الصحيح لعلاج الخلل الموجود يعنى بالبداهة أن اجزاء النظرية بعضها مختلف عن بعض . فلنتكل على التيسير بافتراض اتساع الاحتمالات في تفسير النصوص حتى نصل الى (بديل) دون ان يؤدى ذلك الى الاخلال بتماسك النظرية فماذا تكون النتيجة !

مناهجها وأقرت أشياء (برجوازية) هامة أيضا في المقابل . فالذى أراه ، ولا أظنه خافيا على أحد ، ان مراجعة الماركسية اللينينية لتصحيح مسار اشتراكيتهما جهد باطل ليس فقط لأن النظرية بالأصل منهج غير قابل للتطبيق ولا أن التاريخ لم يجر على النحو الذى شرحته في المادية التأريخية ليكون التصحيح ووضع الحل الصحيح المقتبس منها أمرا ممكنا بل لسبب اقوى من ذلك بكثير ، حسب رؤيتى ، ذلك أن حصول التقدم المرجو من اعادة النظر والتصحيح أمر متعذر في الشيوعية والاقتصاد الحر والموجه ومن اى نوع كان الا بشروط في غاية الصعوبة وأقصى درجات الأهمية فاذا كان تصحيح مسألة رياضية ممكنا بتبديل صيغه (أ + أ/٢ = ٥أ/٢) الى صيغة (أ + أ/٢ = ١٣أ/٢) على الورق ودونما حاجة الى بذل مجهود يكلف سعرة حرارية فان أبسط الاشياء العملية الخاطئة لا يكون تصحيحها الا بجهد يقل أو يكثر وفي زمن يطول أو يقصر وحسب رؤية صحيحة عميقة أو قليلة العمق ، وتتزايد الصعوبة بتزايد خطورة الموضوع المنوى تصحيحه او تبديله بما هو أوفق للمصلحة وعلى حسب تعقيده وتشابكه وتوقفه على أمور يتحكم فيها أو يملكها طرف آخر : اقطع الاستطراد لأقول ماذا تستطيع الماركسية اللينينية وكل الفلسفات النظرية المقطوع بصحتها في صدد امتلاك (التكنيك) اذا كان خارج حوزتها ويرتبط اقتباسه بموافقة جهة لا تسمح به ! ومن الواضح الذى لا تخطئه العين هو انه بمقدار ما تصعد الحياة الاجتماعية والمعاشية والعلمية ... الخ في مستوياتها ومضامينها تشتد الصعوبة في توفير مقومات دوامها واطرادها فالكلفة المالية والعلمية المطلوبة للسفر في عربات تجرها الخيول أقل وأقل جدا من كلفة السفر بالقطار والسيارة والطيارة وتبلغ حد التعذر في الانتقال بالمركبات الفضائية .. والتدفئة بخشب الغابات ، قبل ازمان مضت ، تكون نزهة اذا قيست الى التدفئة بالقوة

الماركسية اللينينية ليست اتفاقا سياسيا بين دولتين ببنود صريحة معلنة وبنود سرية لا يكشف عنها النقاب : فليس في مضامينها مجاز وتورية وكناية واستخدام يمكن بها حمل النص على غير معناه الواضح كى يمكن استخراج البديل المجازى منه لوضعه موضع المفهوم الصريح توصلا الى منهج اشتراكى أو شيوعى أحسن من شكله البلشفى • واذا جاز لى التوسع في الاستدلال قلت لولا ان لينين أصر على حرف ثورة ١٩١٧ نحو الاشتراكية الماركسية لكان من أصعب الأشياء أن ينجح المنهج الماركسى في اى بلد بالعالم فقد اخفقت الماركسية اخفاقها الأكبر في البلدان التى كان يعتقد أنها المهد التأريخي المنتظر لميلاد الدولة البروليتارية وهى ما تزال حتى اليوم تنجح في الوصول الى الحكم فقط في البلدان المتخلفة ولكن بثمن فادح جدا وفشل فادح جدا ، فلم يرتح أى بلد قامت فيه ثورة شيوعية في انقاض المستعمرات ولا حصلت على منافع تساوى الدم الذى سفك في تحقيقها وما اعقبها من جمود وضياع آمال واختفاء حقوق وتحكم استبداد • ثم جاءت الردة الشعبية الجماهيرية البروليتارية على الانظمة الشيوعية في اوروبا الشرقية لتعلن في صراحة كاملة وببرهان قاطع افلاس الشيوعية الا اذا كان القهر والارهاب سندها (ولكنى اعتقد ان الوصول الى الاشتراكية والشيوعية ، بعدها ، ممكن بالتطور المألوف الذى لا افتعال فيه ولا عنف ولا دعوة الى دكتاتورية بروليتارية أو أهداف مفروضة مسبقا •• فلربما وجدنا الشيوعية غير الماركسية تنضج في السويد والدانيمارك مثلا) • وكان ظهور المصاعب الاقتصادية والاجتماعية والسلوكية والايديولوجية في روسيا نفسها الى الحد الذى استلزم الغلاسنوست والبيريسترويكا ، كان ذلك كافيا بحد ذاته للاقتناع على نطاق عالمى بتحرى الحلول للعلل من غير آراء ماركس ولينين وقد سبقت الاحزاب الشيوعية الغربية الى التخلى عن اسس ماركسية هامة جدا في

الذرية وهكذا في كل مناحى الحياة • ومما يجب التنبه اليه ان التخلف عن ركب الحضارة والعلم في ازماننا وازمان تأتى بعدنا لا يشبه في نتائجه المباشرة وغير المباشرة تخلفا لشعب عن شعب آخر قبل مئتى سنة لأن طغيان أسباب تقريب المسافات واختزال الأوقات وارتباط المصالح بعضها ببعض رغم تباعد أوطانها جعلت تخلف الشعوب مقاربا في معناه لمعنى (الانقراض ، الاندثار ، الموت ••) وهل يمكن لشعب لا يملك طيارة أن يبعث سفراءه الى اكناف العالم على ظهور البغال والجمال ؟ وفي بقية الاشياء من قياس البغل الى السيارة والطيارة •• والحياة في جملتها تتسارع من سنة الى اخرى فاذا بعدت الشقة بين جماعة متخلفة وبين ركب المتسارعين فاقرأ عليها السلام • ولزيادة العلم أقول انه لم يعد يفيد كون شعب من الشعوب يصنع مركبات القطار واجهزة التلفزيون بل لابد من صنع شيء ممتاز وقليل الكلفة وسهل الاستعمال حتى يجد له من يشتريه • واصبح من الضرورى توفير مقومات التعامل مع الضرورات الصالحة فالجهاز الطبى المذهل يفقد قيمته اذا توقفت الكهرباء اثناء تشغيله ويكون سببا من اسباب الكارثة اذا تكرر توقفها أو اذا تأخر الطبيب عن ميعاد استعماله في معالجة المريض سواء بسبب التكاسل أو بسبب اضطراب نظام المرور أو بسبب أمر فوقى أرعن • لقد أصبح التعامل مع العصر محفوفا باشتراطات عسيرة وبأخطار كبيرة فرب خطأ فنى بسيط ادى الى كارثة (جرنوبل) أو انفجار المركبة الفضائية الامريكية منذ سنتين • ويوم أمس (اكتب هذا في ٥-١-٩١٩٠) أدى خطأ بسيط لعامل ربط الخطوط في أحدى مدن الهند الى اصطدام قطار سريع بقطار آخر فنتج منه ما يعتبر كارثة قومية •• ولا يفرحن شعب من الشعوب بمصادرها للخامات الطبيعية وللكهرباء من مساقط المياه ما لم يكن لها اثنان من مقومات الحضارة على اقل تقدير ، هما ١ - القدرة على

التسويق في صورة (خام) او بشكل (مصنع) ٢ ـ القدرة على حسن التصرف في مورده منها فما اكثر ما كان امتلاك المهووسين من حكام هذه الدنيا للقوة والمال سببا الى اهلاك شعوبها في المغامرات والانشغال بما لايعنى وبعثرة المال في سفه يبعث على التقزز • الخلاصة ان هذا العصر ليس عصر الأغبياء سواء كانوا فقراء أو اغنياء ويعتبر المنهج المعلول في الاقتصاد والاجتماع والسياسة وكل المرافق الخطيرة من معنوية ومادية جزء من الغباء • وعلى القارىء ان يجول بفكره في مقتضيات الحضارة العصرية على كل الوجهات ويضيف الى حساباتها تزايد السكان المخيف وغير المنضبط ، فالمنظر في جملته باعث على التهيب والفرق بما لا يترك فسحة لأشباع هوس المهووس بممارسة خبالاته ولا لأصرار المفتون بعقيدة أو نظرية أو تقليد أو عرف أو خلق اجتماعي يتنافى مع فكرة معارضة أسباب التدهور في المرافق أو العلائق المعينة على الانتعاش وما زلت اعجب باستنكار من صرف الحكومات والاشخاص مبالغ هائلة في أمور لا تجدى شيئا وتضر كثيرا ومن صرف جهود مضنية لانجاز اشياء عدمها خير من وجودها ومن ادامة عداء او قطيعة تأكل الوقت والمال والبال ••• صرنا نواجه أحوالا تتفاقم من شهر الى شهر تقتضى من الجميع الاندماج في مسار اجتماعي يشمل كل مناحيه ومرافقه ، يرقى الى مستلزمات تحديات العصر والمستقبل ويليق باصحاب النظر السديد والفكر الرشيد والرؤية الصافية بمبعدة كلية من سبق الارتباط بأفكار نهائية ومناهج أبدية متعالية على التغيير فهذا تشبه بالاحياء البهيمة التى تعيد في يومها ما كانت تفعله من مليون سنة •

مما تقدم ومن كل كلام آخر يريد الوصول الى حقائق العصر نقول : ليس مما يسمح به دواعى التقدم ووجوب مسايرة مقتضيات قهر المشاكل

المعاشية ، محاولة استخراج اسباب التصحيح والتكميل من نصوص الآيديولوجيات مهما تكن درجة قدسيتها في النفوس . وبقدر تعلق الأمر بأشارة الرئيس غورباتشوف الى اخضاع التأريخ لمراجعة هامة فأن المبرر الوحيد لهذه المراجعة هو ان يكون الهدف منها عرض نصوص اللينينية الماركسية على التجربة التى تمت في الدولة السوفيتية ونتائجها ومقارنة ذلك الى ما تم تحقيقه في الشعوب التى لم تتبع طريقة القهر والارغام (وليس عرض النظرية على نفسها) لكى يحصل الخلاص من معوقاتها ومروعاتها ويمكن فتح مسار آخر من جنس ما سلكته الشعوب المتقدمة وتسلكه بلا عثرات ولا تهديدات واعتقالات .. لابد من تمكين عامة الناس من بذل الجهد المبدع المنتج بنفس مفتوحة وقناعة كاملة بأن ما يفعلونه هو خيارهم وهو أمر يتنافى كلية مع الافكار والصيغ النهائية المطلقة التى مكانها هو المتاحف .والخلاص من الافكار المتقدسة هو خروج من زنزانة (الدوران حول الذات) في حلقة مفرغة تتصل نهايتها ببدايتها وتفزع من ذاتها الى ذاتها وتلك خطوة أولى للاستقامة على الشارع الموصل الى الهدف ولا تعنى أبدا توفير لقمة واحدة أو زر قميص مقطوع فكما ان الاعتقاد منذ مئة سنة بأن تطبيق الاشتراكية هو خلاص من مشاكل الفقر والجهل ، هذا الاعتقاد كان باطلا ومن خيالات النظريات كذلك يكون توقع الشبع والامان والضمان من مجرد تغيير المسار نحو الجهد الحر خارج مضايق الاشتراكية الماركسية عبارة عن مورفين جديد يمضغه العجزة الاتكاليون من أصحاب الخيال الزاهي والطوبائية الفارغة فأنه لا يحصل تقدم حضارى حقيقي يوفر المأكل والملبس والمسكن ويضمن دوام الاطراد في التطور الى الأحسن الا باتباع منهج متكامل يشمل اكناف الحياة ووجوه الأجتماع بكل أصعدته ومناحيه وميادين نشاطه فليس يكفى الاعلان في القوانين والدساتير ان الناس احرار في اختيار ما يشاءون بل

لابد من التطهر من كل ما هو عائق والتسلح بكل ما هو حافز والتمكن من كل مستلزمات التطوير : أجهزة القمع والترويع تدفن تحت أطباق الثرى ويمسح خيالها من الافكار والاحلام ... القضاء الكفوء النزيه الحر ينشر مظلة القوانين العادلة على الحاكم والمحكوم في مساواة حقيقية بلا افتعال كي يصبح الأيمان بسريان العدالة هو النبض المستمر كدقات القلب الذي لايبذل فيها الانسان جهدا خاصا ولايبتدع لها منهجا قسريا ... وسائل النشر والاعلام والاعلان تتيسر للجميع كتيسر النور والهواء ... البيروقراطية يتم دفنها اذا لم ترد ان تموت باختيارها ... تتوفر الامكانات المتصورة لأي جهد يختاره الناس في التعامل الحر على النحو الساري في البلاد المتقدمة سواء فيما هو تعامل داخلي أو ما هو تعامل مع الخارج . خلاصة القول هي وجوب اشاعة جو من الديمقراطية السياسية والاقتصادية ومن كل الوجوه على غرار ما هو معروف في الدنيا من حول الانظمة الماركسية وبذلك يكون لموضوع مراجعة التأريخ معنى مختلف تمام الاختلاف عما هو متصور من عبارة الرئيس غورباتشوف ويكون اجراؤها أمرا متروكا للأفراد والجماعات وللهيئات الرسميةويشمل ميدانه الماركسية وغير الماركسية ويثور فيه الخلاف مع أصحاب الآيديولوجيات من كان منهم موظفا في دولة أو فردا له آيديولوجية مما هو شائع أو غير شائع . وقد ينشأ الخلاف بين المؤرخين من عامة الناس ولا خطر في ذلك لانه غير مفروض على الناس فيما يأتي به من الافكار والآراء .. ويبقى مع هذا كله ورغم هذا كله أن نقول ان المسار لا يكون مفروشا بالورد والريحان فالازمات والاخفاقات والمصاعب أمور متصورة وشبه محتومة في النظام البديل للنظام الاشتراكي الماركسي وهي أكثر أحتمالا بعد تبديل النظام بالقياس الى دول متحررة من التراث المتقدس وتعويقاته وتعقيداته ولكن لا مهرب من سلوك هذه السبيل لأن الاصرار

على المسار القديم مجازفة تأريخية لا تبشر بالخير ولا يحـــاط بمـــدى مخاطرها في نتائجها داخل الدولة وفي انعكاس آثارها على العلائق الدولية وقضية الوئام والسلام والتعايش والتعاون في التغلب على أزمات الانسان • ولئن كان حب الغلبة والاستئثار بالخيرات والتنافس غير المتكافىء وفرص التطور غير المتوازنة من هذه الدولة الى الأخرى شيئا من قبيل الشر الذى لابد منه ويكون قهره والأتيان بالخير العام لجميع الشعوب هدفا تأريخيـا من أنبل ما جابهته البشرية المستنيرة من تحديات ، فأن هذا الشر فـــي أحوال تسمح بأنفتاح الامكان للقضاء عليه نتيجـة لشيوع الديمقراطيـة والتبادل الحر للآراء والحلول واشتداد ساعد اصحـاب النوايا الطيبـــة والافكار النيرة الواقعية لعلاج المشاكل خير الف مرة من بقـاء الانظمـة التى تفرض وتكرس وتقدس تحكم القلة بأفكارها المتهرئة واساليبها المرعبه في مصائر الناس فأن خروج السجين من سجنه اكثر تبشيرا بانصـــلاح حاله من بقائه داخل زنزانته محكوما برغبة السجان وعقليته : مهما يـكن احتمال السوء في ممارسة الخيار الحر فأنه أكرم لنا أن نخطىء في حـرية من أن نستعبد في العمل الصحيح • على أى حـــال ان البشرية منسـاقـة بطبيعة تكوينها الى رفض القهر ، وكل تأويل وتبرير يتقدم به اصحـاب النظريات المتطرفة لاقفال القفص على الجماهير هو حيل شيطانية وأوهـام مرضية لها ثلاث نتائج أساسية هى في رأس قائمة السوء : النتيجة الاولى فقد الناس لانسانيتهم بفقدهم قوام الانسانية وهـــو حـــرية الأختيار • والنتيجة الثانية هى احتكار شياطين القهر والاذلال لخيرات الحيـــاة • ولو ضاعت الخيرات هدرا أو بالأحراق لكانت وطأتها أخف على الكرامه البشرية من ان يتمتع بها حثالات من قاع جهنم صعدت الى قمة السلطـان والنعيم • والنتيجة الثالثة هى ادامة عمر المذلة والأملاق والاحبـــاط ،

واطالة محاولات الخلاص في تضحيات هائلة شبعنا منها منذ قرون وقرون.

نصل الآن الى عنوان جديد في أوائل الصفحة ٥٤ من الكتاب هو :

البيريسترويكا ثـورة

لقد سبق لي القول بصدد هذا الكلام ان البيريسترويكا ليست ثورة وانما هى (تفجير دمل) مـن الصديد المتراكم ، وبينت خطورة اقتنـاع القيادة واصحاب الحل والربط في الدولة السوفيتية بصواب الرجـوع الى الارشيف الفكرى الثورى لتنفيذ اهدافها الثورية عن سبيل ما هـو في معنى علاج الداء بالداء نفسه .. والعنوان الجديد يستغرق استيفاؤه قرابة سبع صفحات حتى اول الصفحة ٦١ من الكتاب تضمنت محاولات جـادة للتدليل على شرعية الثورة داخل الثورة وانها ليست (ثورة من اعلى).

ويحتكم الى قول لينين في تكرار الثورة لنفسها فيقتبس مـن كلامـه ، كلام لينين ، ان الثورة الفرنسية تطلبت ثلاث ثورات أخرى (١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧١) لتحقيق اهدافها وان ثورة كروميل عام ١٦٤٩ اعقبتها ثورة ١٦٨٨ – ١٦٨٩ – ثم اصـلاح ١٨٣٢ . وفي المانيـا حدثت ثورتان برجوازيتان ديمقراطيتان (١٨٤٨ ، ١٩١٨) تخللهما الأصلاح الـكبير لستينات القرن التاسع عشر الذى حققه بسمارك بالحديد والنار . وينقـل في ذلك قول لينين : (لم يحدث في التأريخ اطلاقا ان كانت هناك ثورة من الممكن أن يلقى فيها المرء سلاحه ويستريح على اكليل الغار بعـد النصر) فيقول السيد غورباتشوف من جانبه : (فلماذا ينبغى اذن على الاشتراكية المدعوة الى تنفيذ تغييرات اجتماعية ـ سياسية وثقافيـة اكثر عمقا في تطور المجتمع من الرأسمالية ، الا تمر بمراحل ثورية عـديدة لـكى تكشف عن قدرتها الكامنة وتتبلور في النهـاية كتشكيل جـديد

جذريا ؟) • فأقول مع الاعتذار عما في كلامى من التصادم المستقيم مع كلام الرئيس غورباتشوف ، ان قياس البيريسترويكا من تلك النماذج هو قياس مع فارق اساسى حاسم لا يسمح بالمقارنة لان النماذج المذكورة كانت لقلب النظام القائم وليست محاولة من النظام لتصحيح مساره كما تريد البيريسترويكا أن تفعل ، أمثل لذلك بالثورة الفرنسية فقط دفعا للاطالة ، فأنها قد انتهت الى تسليم نفسها ومعها الشعب الفرنسى الى نابوليون وتلك نتيجة كانت الثورة تريد ابتداء ألا تقوم لها قائمة فلم تعدم لويس السادس عشر لينبعث بعده عفريت سابع عشر • ومن أدلة اللاعقلانية للثورة الفرنسية ان جماهيرها صفقت لسقوط الثورة وصفقت لقيام نابوليون ومشت وراءه في شبه الجذبة الصوفية فلما سقط نابوليون لم تصفق لسقوطه ولقيام من أتى بعده • ومن حسن حظ البيريسترويكا انها لا تشبه الثورة الفرنسية ولكنها ستصبح مثلها اذا أصرت على استلهام النظرية التى كانت سببا في التحجر فالجماهير الشعبية في غالبيتها الساحقة سواء في روسيا نفسها او في غيرها من الدول السوفيتية ، تكره هذه النظرية بسبب أنها كانت القانون الذى في ظله فقدت حرية خيارها وكانت الظرف الذى احتوى معاناتها الروحية والنفسية وكانت الوسيلة الحاسمة بيد حكامها في اجبارها على تحمل ما لا تحب لعشرات السنين (كلامى هنا في مقارنة بيريسترويكا مع الثورة الفرنسية لا ينقض ما سبق لى قوله في الصفحة ١٤ من الجزء الاول لهذا الكتاب : « فالحتمية في قيام الشيوعية سنة ١٩١٧ في روسيا كانت أضعف اسبابا من مقدار الحتمية التى بعثت الثورة الفرنسية «البرجوازية» وهذا التفاوت في مقدار الحتمية للثورتين هو بحد ذاته ••• الخ » فالكلام هناك وارد في مقارنة الثورة الفرنسية الى قيام البلشفية وليس الى ثورة شباط ١٩١٧ فوجب التنبيه) • والادلة على صدق هذا القول متوفرة الى ما يفوق الاشباع من رد الفعل الشعبي الهائل

الذى احدثته البيريسترويكا والغلاسنوست في عامة الجماهير المحكومة بالقانون اللينينى الماركسى مع زيادة زخم له في شعوب اوروبا الشرقية بسبب أنها ليست بالأصل صاحبة ثورة اكتوبر وبسبب أن احزابها الحاكمة ليست في قوة الحزب البلشفى من حيث السيطرة وعمق الجذور وبسبب أن حكوماتها في تبعيتها لأرادة موسكو خلال عمرها كلها تفتقد ما يملكه الحزب الشيوعى الروسى والحكام الروس عموما من حصانة ضد تهمة الذيلية وبسبب التفاوت الحضارى بين كثير من دول اوروبا الشرقية وبين كثير من الشعوب السوفيتية .

في الصفحة ٥٤ نفسها وفي الأسطر العشرة الواقعة بين التصريح بان البيريسترويكا ثورة وبين تقديم الشواهد على وجود نماذج تأريخية في وقوع ثورة داخل ثورة ، ورد التأكيد على ادعاءين وجدتهما خطيرين . الأدعاء الأول مقتبس من حيثيات الاجتماع ـ الحزبى ـ الكامل لينابر ١٩٨٧ في أن البيريسترويكا ليست فقط تكملة مباشرة لأنجازات أيام اكتوبر ١٩١٧ بل انها امتداد وتطوير لأفكارها الاساسية ، حتى ينتهى الكلام بالجملة الآتية : (.. ويجب أن نضفى دينامية جديدة على اندفاع ثورة اكتوبر التأريخى ونواصل كل ما بدأته في مجتمعنا) .

والأدعاء الثانى وارد في عبارة بعد الكلام المتقدم ، تتضمن في جزئها الاهم ما يلى : (... ثورة اكتوبر لا تعتبر نقطة انعطاف في تأريخ دولتنا الذى يبلغ الف عام ، والتى لا يضاهيها شيء في قوة تأثيرها على تطور البشرية ..) .

عن الأدعاء الأول الذى يمكن التقاطه ايضا خلال سطور كثيرة مما تقدم من صفحات كتاب البيريسترويكا وأكون أنا قد وضحته بالسلب أو بالأيجاب في تعقيبى عليها ، أقول في صياغة جديدة : ان فضل

البيريسترويكا وجمالها وانجذاب الناس اليها داخل المعسكر الشرقى كله وخارجه نابع من أنها جاءت لتقطع سريان افتراضات نظرية لا يمكن ان تكون صحيحة فالقفزة الى الاشتراكية الماركسية في روسيا سنة ١٩١٧ كانت مغامرة لم تكن لتنجح اطلاقا الا في ظل الظرف الاستثنائي السائد من نتائج الهزيمة العسكرية وتفكك السلطة وشيوع الفوضى وانتشار الجوع ومع هذا كله لم يكن منتظرا لأية محاولة (سياسية اجتماعية) طامحة في طموح حركة اكتوبر ان تنجح لولا ساحر مثل لينين بما يملكه من قوة الشخصية وقوة الاقناع وقوة الاقتناع ، ساعده عليها أن خطابه في جزئه الحاسم كان مع زبدة المثقفين القائمين بثورة ١٩١٧ ابتداء وليس مع ملايين الجياع العراة الذين كان ضبطهم بفلسفة لا يفهمونها بتسبيباتها أمرا مستحيلا الا ما كان في اصدائها من الدعوة الى اشاعة الملكية من جرس حبيب الى الآذان وهو سبيل الى زيادة الفوضى والانفلات وليس الى الحكمة ورص الصفوف • فاذا كان ذلك كذلك فان اضفاء (دينامية جديدة) على اندفاع ثورة اكتوبر التأريخى ومواصلة ما بدأته تكون ـ في رأيى ـ من قبيل اضافة المر الى المرارة الموجودة • ان مجرد القول بدوام الاندفاع الثورى حتى من دون اضافة (داينمية جديدة) اليه يجعل الركب تصطك ذعرا • ان الثورة في ضوء أقوى مبرراتها المتصورة غليان وقتى ضرورى لأزاحة حكم ظالم واقامة حكم عادل مكانه ولاشيء غير ذلك : فما لم تكن الأحوال بعد الثورة غلبها الجنون فلا معنى مطلقا لدوام الحالة الثورية الشاذة ساعة واحدة أكثر من اقتضاء عملية التبديل فلا يوجد ظرف سياسى ـ اجتماعى أفدح ضررا بالمصالح من الجو الذى تسوده التشنجات ، ولا توجد قرارات في الاقتصاد وغيره من المرافق الهامة أبعد عن المنطق من القرارات التى تتم بعروق منتفضة وانفاس محمومة وعيون جاحظة على ابان الاضطراب الثورى لاسيما ان

متخذى هذه القرارات ناس خليط من انصاف اميين ومن متعلمين نظريين تعوزهم التجربة ومن حزبيين سياسيين قصارى براعتهم وعبقريتهم هى القدرة على الأثارة واطلاق الصيحات المجلجلة .. وقد رأينا منهم انماطا شتى ما أوصلت احدا الى السلامة . ان الثورة حالة من الغليان تكون اكثر الاحوال حاجة الى الخمود والهدوء بما يعوض الناس عما أسرفوا فيه من بعثرة القوى وهدر الجهد والوقت والفرص .

عن الادعاء الثانى في ان ثورة ١٩١٧ ، وثورة اكتوبر فيها بالذات ، ذات قوة تأثير على تطور البشرية لا يضاهيها شيء ، ينبغى التفريق بين التأثير السياسى وبين التأثير الحضارى فالتأثيران ليسا شيئا واحدا بل انهما قد يبتعد بعضهما عن بعض الى حد التضاد ونادرا ما يتحدان . ولا أرى فائدة ، اية فائدة ، في دأب اليسار على تمجيد العنفوانات الداعية الى التغيير ما لم تكن تحوى شرطين اساسيين : احدهما هو ضرورة التغيير بالقوة ضرورة لا تأويل فيها . ثانيهما وجود منهج بديل صالح موثوق من نجاحه عن النظام الذى يراد تغييره ولا صلاح قطعا في تمهيد الطريق الى التغيير بالدم والحديد والنار فهذه في منطق الحقيقة وسائل اشهار الافلاس وشتان بين تغيير يجرى باقتضاء الواقع في يسر وسلامة وبين تغيير على توتر دائم للعضلات في دفع عجلات العربة الى الأمام وسط الأوحال والعثرات وبالعرق والدم والدموع فتلك عملية ميلاد قيصرية لو انصفت الحامل نفسها لامتنعت من الحبل أصلا اذا كان لها سابق علم بضرورة الميلاد القيصرى . لا عزاء مطلقا للجماهير العريضة التى تتلاشى بددا في محرقة التغيير بزعم ان ذلك نقلة الى النعيم ، فاذا جاز تبرير التضحيات المبالغ فيها في الانفجار الاول ، وهى لا تجوز مطلقا ، فليس بالاحاسيس تبلد لكى تتقبل الدوام على بذل التضحيات الى غير نهاية في تكرر

الثورات أو في الثورة الدائمة • ان تأثير ثورة اكتوبر في شحذ الاحساس بالفروق الطبقية وتنشيط الغليـــان الاجتماعي بأقانيمها النظرية المهيجـة لاسيما عامل (التناقض) بالذات كان شيئا وراء كل تصور ولكن المؤسف في ذلك انه ما من تجربة ثورية جـــرت في هذا المنحى اتت أكلها على حسب ما كان منتظرا من التبشير بها فقد جاءت غالبيتها الساحقة ، ان لم أقل كلها ، في بلدان متخلفة عاجزة عن تحقيق الاشتراكية عجزا كـــاملا فسادها الأضطراب والأحتدام والتذابح لتخمد بعده في الفقر والجـــوع والمرض التأريخى الذى اعتادته منذ الأزل وظلت الشعارات المهتزة على نسمات الريح والكتابات المثيرة وصيحات تتحشرج بها الصدور هـــى شواهد القبور لأشلاء الصـرعى من البشر ومن البشائر • وكـان لثورة اكتوبر تأثير من جهة اخرى أيضا هى جهة التسابق بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة في الحرب الباردة فقد استغلتها الدول الواقعة في دائرة نفوذ الغرب سلاحا بوجه الدول البرجوازية في مراحلها الاستعمارية ولها تفصيلات لا تجد في هذا الكتاب مجال شرحها (مثل دور الولايات المتحدة في تبديل اسلوب الاحتـــلال بأسلوب آخـــر سماه خصومها بالاستعمار الجديد ••) وكان الاتحاد السوفيتى محتاطا في ألا يرتد عليـــه تأثير الحرب الباردة والتنافس بين المعسكرين بدفع الشعوب غير الروســـية الواقعة ضمن منطقة نفوذها الى طلب الاستقلال حتى أيام اصبحت فيهـــا البيريسترويكا والغلاسنوست من ضرورات العصر فكشفت ما كان مستورا من القهر والاخضاع في اوروبا الشرقيـــة وكثير مـــن شعوب النظـــام السوفيتى اضافة الى كشف حقائق الاحوال غير المريحة في روسيا نفسها وتبين أن كراهية الناس للنظام الذى كانوا عايشين فيه بظـــل الماركسية اللينينية دفعتهم الى طلب الخلاص بفضل المعسكر المقابل كمـــا كانت شعوب العالم الثالث تستعين بالسوفيت في مناجزة دول الغرب فالـكل في

المحنة سواء مع اختلاف في العلامة الفارقة للمحنة • ان التأثير الحسن لتوازن روسيا مع أمريكا في مجابهة العالم الثالث لدول الغرب قد هبط كثيرا من البداية بسبب أن الماركسية اللينينية كانت أشد تأثيرا في تأليب طبقات شعوب العالم الثالث بعضها ضد بعض على نحو مهلك فقد كان ذلك بحد ذاته آفة أربكت نضال تلك الشعوب وأجهضت كثيرا من ثمرات الكفاح المشترك للناس كافة في ميدان الحقوق الديمقراطية التى كانت أنظمة الحكم في كثير من الدول اكثر عداوة لها من المستعمرين أنفسهم بدليل ان نظام حكم بعض الدول المستقلة كان اكثر دكتاتورية من نظام دول خاضعة للحكم الغربي المباشر فلو ظهر رجل مثل سعد زغلول او غاندى او نهرو في يمن الامام يحيى حميد الدين أو ايران رضا شاه بهلوى لزال من الوجود قبل ان ينطق بكلمة • ان الثورات وكل النضالات التى تقوم لأجل اشباع الناس وتحريرهم لا تكتسب الاحترام بسبب أنها تبنت شعارات جذابة ولا يسوغ اطراؤها لمجرد كونها وسيلة فعالة لتحريك الناس • هذا وكثير غيرها يمكن أن يقال من ناحية صلاح وفساد أية حركة سياسية بصرف النظر عن مدى خطورتها فقد تكون خطيرة وفاسدة معا (مثل حركة هتلر) أو تافهة وصالحة معا •• الى بقية الاحتمالات • فاذا بلغ كلامنا ميدان تحديد الخطورة التأريخية من حيث قدرتها التطويرية فالقول بأن ثو ة شباط او اكتوبر ١٩١٧ تأتى في مقدمة كل الأحداث والأشياء التى أثرت على تطور البشرية فأن لى في ذلك رأيا خاصا بى اقول فيه مايلى :

ان أية دعوة سياسية أو تبشيرية أو أخلاقية ، ما كان منها قولا محضا وما كان قولا ونشاطا ، لا تكون بذاتها تقدما ـ اذا كانت صالحة ـ ولا تأخرا ـ اذا كانت طالحة ـ وانما هى باب لما قد يترتب عليها من

أمكانات الخير والشـــر فهى ليست كأكتشاف دواء للسرطان أو قانون فيزيائى أو طريقة لتكثير ناتج الحنطة أو اختزال جهد العامل او تيسير فهم النسبية .. فهذه الأمور ملتبسة بنتائجها وليس لها احتمالان اما صلاحا أو فسادا واما نجاحا أو اخفاقا . والثورة الروسية واحـدة مـن الأمور السياسية ـ التبشيرية ينظر اليها من زاوية انجازاتها : فهى في نظـــرى باستنادها في اشتراكيتها الى فكرة دكتاتورية الطبقة العاملة شيء خيـــالى غير قابل للتطبيق المستقيم الذى لا تأويل فيه ولا خداع ، فالطبقة العاملة لا تستطيع ان تكون حاكمة ولا تستطيع ان تكون دكتاتورية ولا تستطيع ان تكون كادر الحضارة المتقدمة من علم وآداب وفنـون واختراعـات وتكنيك الا بتأويل غير صادق مـن تنصيب ناس خارج البروليتاريا وكلاء عنها في التسلط والحكومة وهى وكالة لا تقبل العزل والفصم مفروضـة على الطبقة العاملة نفسها بالقهر والارهاب ونرى من نتائجها ، بعد فرضها على اوروبا الشرقية منذ اربعين سنة ، ان الطبقة العاملة هى أول الرافضين لها ولمنفذيها وأول المجتهدين في احلال بديل ديمقراطى محلها ام نحن لم نزل بحاجة الى براهين وراء ما فعلته جماهير رومانيا بدكتاتورها ومـا تطلبه كل طبقات شعوب اوروبا الشرقية من نبـذ دكتاتورية الطبقـات وما تعانيه روسيا السوفيتية من مطالب ملحة للتغيير ما بين مطالب قوميـه وطبقية ودينية واجتماعية ومن كل صنف وجنس كانت معتبرة في نصوص النظرية وعند بدأ تطبيقها انها من مخلفات عهود الظلام والتمايز الطبقـي وحكم الاقطاع والكنيسة .. واما أثرها خارج موطن تطبيقها ودول اوروبا الشرقية والبلطيق والبلدان الاسلامية وغيرهـا مما كان مـن مستعمرات القيصرية فصارت دولا سوفيتية ملحقة بروسيا نفسها ، فهو أثر في جوهره أكثر سلبية وأفدح ضررا : صحيح ان احزابا شيوعية وصلت الى السلطة في بعض اجزاء آسيا [ولا أقصد الصين التي لها قصة مستقلة] وأفريقيـ

وامريكا الوسطى والجنوبية ولكن وصولها كان برغم أسس الماركسيه وجاء بنتائج في أغلبها الساحق وخيمة ارتدادية وقد غـرق بعضهـا في دم نفسها بالأضافة الى أنها وأدت النضال الوطني الدمقراطي المبني على جهود كامل الأطراف الداعية الى الخير والسلام • ولا يعلم أحد ماذا يكون من مصيرها بعد الذي كان من قفزة البيريسترويـكا والغلاسنوسـت فليـس منتظرا من حكام تلك البلدان التسليم بحكم التأريخ والواقع للنزول مـن مطايا الحرب الطبقية ومفاهيم التناقض وفائض القيمة ونقض النقض الا أن تاني زعازع جماهيرية تزيح تلك الحـكومات كما أزاحـت چاوچيسكو وتلك خاتمة لا تشرف أحدا ولا تريح حتى الداعين الى الدمقراطية بمـا يكون فيها من دم وهدم وتشريد ! ليست الشيوعية ولا أية آيديولوجيـه أخرى سببا مباشرا بحد ذاتها لتوفير التقدم وانما قصارى أمرها في حـال صلاحها أن توفر جوا معينا على العمل الخلاق الذي لايكلف اكثر ممـا يستحق ولا يسيل فيه دم أو ينهار عمار ••• أقول الحـق ، اني اجـد صعوبة بالغة حـد الضيق ، للأعتراف أو للأعتقاد بأن التجربة السوفيتيـة بما رافقها من صنوف هدر الدم والكرامة والحرية كانت الخيار الصالح من بين خيارات أخرى فاسدة لان هذا الزعم ينهار من وجهين حاسمين : الأول هو مآل التجربة السوفيتية نفسها حيثما طبقت ، وكراهية النـاس لها الى حد الجهر بوجوب التخلي عنها في مواطنها مضافـا اليـه ارتـداد الشعوب والطبقات العاملة على الشيوعية في أوروبا الشرقية ، هذا وما كان من رؤيتي الشخصية لفعل الماركسية بعقول معتنقيها في بلدي شـأنها شأن أية آيديولوجية أخرى تحصر ايمانها بنفسها •

والوجه الثاني هو حصول تقدم يفوق تقدم السوفيت في كل الميادين، عدا ميدان الشعارات والهتافات ، في بلدان اخرى لاتملك جزء من عشرة

اجزاء مما تملكه الدولة السوفيتية من كل أسباب الازدهار الطبيعية •

ومما لايمكن اغفاله أن الثورات والحركات الأجتماعية الأخرى الداعية الى التطوير هي (نتائج) وليست (أسبابا) من حيث الأبتداء ، فلابد من تطور حضاري على يد العلماء وبقية حملة مشاعل الثقافة كي تتولد الأفكار الداعية والساعية الى التطوير نحو الأحسن : بعد ميلاد تلك الأفكار وممارستها للفاعلية في دفع الناس الى تحقيق أهدافها يبدأ دورها في كونها (سببا) لما قد ينجم منها : وقد يكون ما ينجم شرا أو خيرا أو مزيجا من الخير والشر بدرجات متفاوتة • وقد يكون مما يساعد على تكوين صورة واضحة لما أقول أن اكتشاف دوران الأرض والقول ، قبل ذلك ، بكرويتها ومعادلات الجاذبية ومقولات النسبية كان لكل منها أثر يفوق أثر كل الثورات والنضالات السياسية والمواعظ الأجتماعية في عملية التطوير • ومن غريب الاتفاق ان يكون اكتشاف أمريكا نتيجة التصميم على أن الأبحار غربا من أوروبا سيقود السفينة الى الهند في الشرق بحسب كروية الأرض • ان غاغارين مدين بأولويته في ريادة الفضاء الى أينشتين ويدين له ستالين أيضا في امتلاكه السلاح الذري لان نسبيته فتحت الباب أولا لامكان فلق الذرة • ان معادلة (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) لها أثر حاسم في مآل البشرية يفوق أثر كل الثورات مجتمعة مع افتراض كون هذه الثورات كلها انتفاضات صالحة خالية من أي سوء فليس للثورة شرف أكبر من أن تكون خادمة معينة للابداع والا فماذا تستطيع ان تفعل عن طريق ثوارها في قهر الجاذبية والفحص الكاربونى وصنع أشعة الليزر ومجسات بواطن الأرض ؟ بل أي الثوار يقدر أن يركّب اطارا للعربة في محوره ! الثورة ومنظّروها والقائمون بها والحاكمون ـ فيما بعد ـ لأمرها وأمر المجتمع المحكوم بها من هوامش

الحضارة الحقيقية وهي في أحسن احتمالاتها وأجمل صورها لاترقى الى صلاح وجمال (حكم) هو هامش لتطور حضاري بلا دم وهدم وثورة وهتاف • ومن أفدح صور النكاية بالابداع كون الثورات قادرة على تبرير اعدامه أو تشويهه أو اتهامه أو صرفه الى وجهة مضادة لوجهته وتسخيره فيما تشاء من الآفات بلا رقيب أو حسيب وهذا مافعله ستالين وما يفعله كل مستبد بأمر دولته ، فالعلوم والفنون والفلسفة والآداب وكل صور الجمال والكمال للحضارة تكون مسخّرة لرغبة واحدة فوقية تتصرف في وحدانية تريد ان تكون شبيهة بوحدانية رب العالمين • ومن المشهود الذي لا يخطئه النظر أن الثورات المبنية على آيديولوجية تؤمن بنفسها فقط تصيق ذرعا بكل نتيجة عملية أو رأي نظري لعلم من العلوم لايتماشى مع مسلماتها وركائزها ، ومما اشتهر عن الماركسية أنها تعادي اجتهادات وآراء كثيرة في ميدان الانسانيات لكونها تتصادم مع نصوصها • ومن المعروف جيدا أن التأريخ على وجه الخصوص شيء تحتكره الماركسية لتحليلاتها حتى يأتي بناؤه منسجما مع مقدماتها ونتائجها فليس مقبولا لدى الماركسيين ان يكون التأريخ جرى خارج الأطر الفلسفية التحليلية التي صاغتها له وهي في ذلك تقارب المادية الآلية وان انكرت ذلك : فالحتمية المعزوة الى النتائج المستخلصة من نظرية المراحل التأريخية هي الآلية نفسها فلكي تنتفي الآلية عن التأريخ وجب تجريده من الحتمية وهو في واقعه لايحتم شيئا معينا لسبب واضح في منتهى الوضوح هو أن خالق التأريخ هو الانسان وهو ليس بهيمة تتحرك بالغريزة التي لاتتغير ، ولا هو جماد يتصرف – اذا تصرف – بدساتير أزلية أبدية [مع ملاحظة ما يذهب اليه الفيزياء الحديثة من عدم حتمية نتائجها – على حسب قراآتي الأخيرة] حتى يكون تصرفه شيئا يمكن سبق التنبؤ به•والجانب التأريخي من تحليلات ماركس بحتمياته لايترك للانسان خيارا في المصير الذي يرضاه لنفسه لأن

الاشتراكية التي بشر بها حكم التأريخ ، وهو لم يزل أسير هذا الحكم الذي أصدره ماركس قبل اكثر من قرن وأربعين سنة ويبدو أنه لا يستطيع الخلاص منه حتى في حماية البيريسترويكا بل انه يعطل حتى الغلاسنوست من حيث ان بيان الحقائق لا يجوز أن يمس الخيار الاشتراكي • وغاية ما أخشاه قياسا من جواز وقوع الثورة داخل الثورة أن تنهض الحاجة الى بيريسترويكا أخرى لتحرير الانسان السوفيتي من أسار النظريات التي تستعبده بفرض نفسها عليه حتى نهاية الزمان •

في وسط الصفحة ٥٥ سطران ونصف سطر من أقوال لينين يقولان مايلي :

« ان الاشتراكية قد تتضمن محاولات جديدة • ومن الممكن ان تكون كل محاولة أحادية الجانب من زاوية معينة ، ومن الممكن ان يكون لكل منها خصائصها الخاصة ، وينطبق ذلك على كافة البلدان » • واذا كانت الترجمة دقيقة فأن هذا الكلام لا يلزم نفسه بشيء لأنه مبني على الاحتمال منذ البداية باستعمال (قد تتضمن) وهي للتشكيك أو الترديد• ثم يقول (ومن الممكن) فهو يتضمن الوقوع وعدم الوقوع • وفي النهاية يقول بانطباق الكلام على جميع البلدان فاذا لم يقع شيء مما قاله في أي بلد بالعالم كان عذره واضحا في أنه لم يؤكد وقوع شيء على سبيل الحتم وانما هو احتمال قد يقع وقد لا يقع • وتستطيع انت ايها القارىء ان تقول بلا خوف : من الممكن ان تمطر السماء مطرا وثلجا في كل أيام السنة على طول مدار السرطان فاذا لم تمطر لم يشملك لوم لانك عزوت كلامك الى الاحتمال والأمكان •• وظني ان لينين قال ما قال تحسبا من جريان الأمور على غير ما استلزمته نظريته فصاغ كلامه صياغة تصلح لتأويل التطورات غير المتوقعة على أنها شيء منتظر حتى اذا أوجبت هجران بعض

قليل أو كثير من محتويات النظرية وأهدافها أمكن احتواؤه شكليا بالاشارة الى (قد تتضمن) والى (من الممكن) الذي ورد في السياق مرتين. ولا أظن أن لينين تبرع بتوضيح المقصود من (المحاولات الجديدة) ومن كونها (أحادية الجانب من زاوية معينة) ومن جوازوجود (خصائص خاصة) لكل محاولة فأن تسمية نوع المحاولة لا يجوز ان تبلغ حد التصريح بجواز تبديل الاشتراكية بالجهد الفردي في المرافق لأن هذا التصريح اضعاف لقوة النظرية ، فاذا حدث ان أصبح هذا التبديل ضروريا كان العذر في هذا الأجراء موجودا لسبق القول (بالمحاولات الجديدة) . والواقع هو انه اذا كانت (المحاولة) منتزعة من نصوص النظرية بتأويل معانيها فلن تكون (جديدة) لأنها تجد ذاتها عبارة عن رجوع الشيء الى نفسه لتصحيح نفسه فلا جديد فيه ، ولأن محاولات مماثلة كثيرة جرت عبر القرون في العقائد المختلفة حتى بلغت حد التقلب ولكن لم يحصل من أصحابها اقرار بأنها خروج من نطاق العقيدة وانما قالوا هو تجديد فيها وحسن اهتداء الى حقيقة معانيها .. مع هذا فاني أرجو ان تبلغ البيريسترويكا مديات في التأويل تكون تغييرا حقيقيا لكل جزء من النظرية ومن التطبيقات فيه تحجر وتضييق ، واعتقد ان العلة السارية في تطبيقات اللينينية الماركسية وفي نصوصها لايفيد فيها التأويل والتوسع في الاستدلال وأخذ الدواء من أحد أجزائها لشفاء جزئها الآخر المصاب كما يفعلون في جراحات التجميل بكشط الجلد من هنا والصاقها هناك .

ان الآيديولوجيات الغارقة في الأيمان بنفسها ، على فرض صحتها وصلاحها أول ما تمت صياغتها ، تكون من أشد العراقيل والأحابيل على طريق التطور مستقبلا يوم تتبدل المؤثرات والمستلزمات والمحتويات وتتغير الدنيا غير الدنيا . ومن النتائج الغريبة في شئون البشر ان يكون نسيج

ينسجه في يومه هذا دفعا لحاجة وتحقيقا لمصلحة ينقلب بعد فترة من الزمن قيودا في اليدين وأرسانا في القدمين واختاما على السمع والنظر ، على حين يظل نسيج العنكبوت نسيجا صالحا قائما بالواجب حتى النهاية ، ولكن الغرابة تزول بملاحظة ان أطوار الانسان في مجتمعه تتغير من زمن الى زمن فلا يعود المقلاع اداة صالحة للصيد في عهد البندقية ولا الثور مفيدا في الحرث على أيام المكينة ولا أفكار قرن مضت شافية لعلل قرن لاحق ...

بعد العبارة الآنفة الذكر تأتي عبارة أخرى فيها باب ينفتح على منظر جديد في الاشتراكية الماركسية اذ تقول : « وقد أوضحت الخبرة التأريخية ان المجتمع الاشتراكي ليس مؤمنا ضد ظهور وتراكم اتجاهات الركود ، ولا حتى ضد الأزمات الاجتماعية ـ الاقتصادية الكبرى . وهناك حاجة على وجه التحديد الى تدابير ذات طابع ثوري للتغلب على الازمة ، أو على وضع ما قبل الازمة . والشيء المهم هنا هو ان الاشتراكية قادرة على التغييرات الثورية لانها دينامية بطبيعتها » .

تقول العبارة ان (الخبرة التأريخية) أوضحت كذا وكذا وليس النور المنبعث من النظرية نفسها ، وهذا كلام صحيح ولكنه صحيح بدرجة أوضح في كشف البشارة الحلوة الخيالية في أن الأنسان بعد وصوله مرحلة الاشتراكية يتفرغ لقهر تناقضات الطبيعة فقد ثبت بالخبرة وبالتجربة المريرة الثقيلة خلال سبعين سنة ان البشر الفرد والبشر المجتمع ليس آلة يستقيم عملها بالغسل والتشحيم الآيديولوجي ولا هو بهيمة تراض على حركات محددة مقصودة في الملاعب وان أساتذته ليسوا أنصاف آلهة تنزهت عن السهو والهفو واللهو وما اليه من العبث ، ولو أن رجلا قال شيئا كهذا من خمسين سنة أو ثلاثين لتم تكفيره وفضحه والتشهير به على

أنه مأجور برجوازي أو عميل استعماري أو عدو طبقي يتصدى لدحض حقيقة تأريخية ثابتة في النظرية وفي انجازات ستالين العظيم • وفي العبارة اشارة الى امكان حدوث أزمات خطيرة اجتماعيا واقتصاديا ونضيف اليه نحن : واجتماعيا واخلاقيا وعرقيا وطبقيا ومن كل صنف ونوع • وكان الافتخار متصلا من قبل الماركسيين باختفاء الأزمة الاقتصادية في المجتمع الاشتراكي السوفيتي وقلت في ذلك أثناء بعض كتاباتي منذ سنين ان الأزمة تحدث بين البشر الأحرار الذين لهم قدرة على الرفض وعلى تحديد خياراتهم اما فاقدو الحرية فهم يموتون جوعا ولا يحركون ساكنا •• ولنا ان نلاحظ ان هناك فرقا جوهريا بين أزمة تحدث في بلد ذات اشتراكية مقسورة عليها وازمة تحدث في بلدان الاقتصاد المسمى حرا فالغالب في البلدان الاشتراكية ان يكون الحظر والمنع والردع سببا لتراكم العجز المادى والكبت المعنوى خلال زمان يقصر او يطول على حين يكون امكان الطلاقة في كل الوجوه وعدم انضباط الأنشطة في البلدان البرجوازية هو سبب الأزمة من حيثيات كثيرة ، أقواها بنظرى هو فقدان التناسب بين ما تطلبه النفوس وما تقدر عليه من جهة وبين ما يمكن عرضه أو ما هو معروض في الواقع من جهة أخرى ••

في جزء من العبارة المقتبسة فوق هذا الكلام ورد مايلى : (وهناك حاجة على وجه التحديد الى تدابير ذات طابع ثورى للتغلب على الازمة) • انى اتوجس من (الطابع الثورى) هذا فهو غير محدد ولا معروف بأوصافه ويفتح باب الاحتمال على ما لا يمكن التنبؤ به من معالجات • وافضل عليه (الطابع الواقعى) الذى هو بدوره أيضا غير محدد ولا معروف بأوصافه ويفتح باب الاحتمالات •• ولكنه لا يفضى الى المعالجات المسرحية ولا الى الشعارات الفلسفية والهتافات الآيديولوجية

ولا يتفحص الزوايا المعتمة في رواق نظرى واحد للعثور على الترياق السحرى ، ثم لا يعهد به الى جهة متقدسة بالثورية والجماهيرية والفيلانثروبية الغارقة في تسبيب التسبيب وتنظير التنظير وقولبة الحاضر على مقاس الماضى وهندسة الآتى على قوالب الحاضر ....

ختام العبارة المنقولة من كلام الرئيس غورباتشوف يقول : (ان الاشتراكية قادرة على التغييرات الثورية لأنها دينامية بطبيعتها) .

لا يوجد نظام سياسى ، ولا حتى دينى ، يعجز عند الضرورة عن التغيير ، بل ان دين الاسلام تعددت به الاجتهادات الحرة بلا تدخل من قوة سياسية أو دنيوية أو وقوع اكراه من أية جهة كانت بل ان جماعة دينية مشهورة استعانت بالدولة في فرض القول بان القرآن مخلوق فأفلست منذ اكثر من الف ومئة سنة وبقيت المذاهب الأخرى القائلة بقدم القرآن من غير الاستعانة بالدولة او بالاقوياء بقيت خالدة قوية وتزداد انتشارا . والملحوظ عموما ان الآيديولوجيا المؤمنة بنفسها فقط والمستعينة بالسلطة هى كالغرفة ذات الباب الواحد يدخل منه الزاد الثقافي الرسمى الحكومى ، وذات النافذة الواحدة المنفتحة على الدنيا المعروضة على الأنظار بترخيص رسمى . والاشتراكية او النظرية اللينينية الماركسية من هذا النمط الذى له باب واحد ونافذة واحدة وديناميتها محصورة فى نفسها ، وصفتها الثورية تكون أقرب الى مدلولها اللفظى من القسر والأجبار وليس الى تعدد الاجتهادات والحلول . ويؤسفنى ان يكون كلام الرئيس غورباتشوف لم يتجشم تقديم الدليل على هذه الدينامية فالتأريخ السوفيتى خال من أى دليل على الدينامية الحقيقية الذاتية للاشتراكية الماركسية اللينينية الا ما كان منها بالتسخير والأوامر الفوقية وتلك وسيلة تؤتى أكلها حتى في يد جنكيزخان قبل اكثر من

سبعمئة عام وشرطها الوحيد هو وجود ناس ومال يمكن تسخيرها فـــى مشاريع القوة القاهرة •

احب ان اقول من باب التوضيح ان تعقيباتى على جمـل متعاقبـــة بشيء من التطويل ليست من باب الأصرار على تركيز رمح لى في كـل ساحة وانما هى اسهام منى في القاء الضوء على ما ينبغى كشفه للنظر على حسب رؤيتى ورأيى فالكتابة هذه كلها ما هى الا وفاء بدين في ذمتى تجاه حركة (اعادة البناء ـ البيريسترويكا) التى احببتها من أول يومها وأحبها ملايين الناس الذين يريدون بالانسانية خيرا فأذا لم أقم بالذى أقوم بـه على النحو المعروض للانظار ، فأن سكوتى أولى وأجمـل فأنا وغيـــرى من فاقدى القدرة والقوة لا نملك غير الرؤية والفكر فأما ان نحجبهما عن الناس بالسكوت واما ان نقول الصدق في صراحة ووضوح • ومـــا مـن شيء ورد في كتاب البيريسترويكا وهذه الكتابة وغيرهما مـن الـكتابات والآراء الا وله محك من الأحداث القادمة تظهر عليه حقيقته فضلا عن أحداث الماضى وما يحكم به المنطق الخالص فلن يضر الأنسانية أن أكون اخطأت في بعض استنتاجاتى ، ولا يخلو من فائدة ان اكون أصبت فـــى جانب من آرائى ، وانا مع هذا وهذا محتاط لما أقول باستفراغ الجهـد في استشفاف مظان الحقائق قبل الدخول في نشـــر الرأى على حين تمتلىء الدنيا من حولى بالتســـرع الشديد في المبادرة الى العنف في شتى أشكاله ودرجاته • والأمر كله لا يخرج عن شرعة سنتها البيريسترويكا وأختها الغلاسنوست وقد طبقت شهرتهما الآفاق ودوت اصداؤهما بأكثر مما فعلته أول قنبلة ذرية في سنة ١٩٤٥ من نحو خمس وأربعين سنة •

وردت في نهاية الصفحة ٥٥ من كتاب البيريسترويكا عبارة هـــذا نصها : (••• والبيريسترويكا عملية ثورية لانها قفزة الى الأمـــام في

تطور الاشتراكية وفي تحقيق خصائصها الجوهرية) • وأقول عنها ابتداء ان كلمة (الاشتراكية) الواردة فيهـــا تعنى اشتراكية اللينينية الماركسية وليست مطلق الاشتراكية فلا الرئيس غورباتشوف نفسه يقصـد بهـــا اشتراكية تنبع من البرجوازية بتطورها المعتاد الخالى من العنف ومـــن قيادة شيوعية (بلشفية) ولا طبيعة الكتاب نفسها يمكن ان تومىء الى غيـر اشتراكية نجمت من ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، ثم ان وصف (الثورية) في اوائل العبارة ينفى كل شك حول حقيقة ما تعنى • وبصدد نهاية العبـارة المذكورة القائلة (تحقيق خصائصها الجوهرية) الموحية بنية اطرائهـــا لورودها بعد كلمات (ثورية •• قفزة الى الأمام ••) فواقع أمرها أنهـا كشفت خصائصها الجوهرية خلال عرض سلبياتها وما صنعته من تمهيـد الطريق الى التحجر والبيروقراطية وتخلفها عن ركب الحضارة فهـى ، أى البيريسترويكا ، أثبتت فضلها واحسانها الى التأريخ برفـــع الغطـــاء عن عيون الناس المفتونين بالماركسية اللينينية رغم أنها ألقت شفوفا مـــن البريرات والتأويلات على السلبيات ما كانت لتخفى على أحـــد يريد رؤية الحقيقة • ومن أبرز الادلة على صواب ما أقول امتعاض الانظمـة الماركسية في العالم الثالث من البيريسترويكا وردود الفعل السلبية القوية من عامة متطرفي اليسار المتخلف الميال الى العنف والغلو وان اكثرهم بغضا للغلاسنوست والبيريسترويكا ولغورباتشوف وأصحابه هم الأشد غوصـا في الفكر المعتم والأوفر حظا في الشهرة واللمعان بذيوع الغمرة والغبرة الحاجبة لوضوح النظر والكاتمة لأنفاس الحرية الحقيقية • لقد انهـــار مجد عشرات الالوف من مرددى تقديس كل كبوات الاشتراكية السوفيتية بعد انكشاف السلبيات والنواقص الفادحة الموجودة في التطبيقات التى جرت بالدولة السوفيتية فلم يعد اولئك الناشئون في رواسب الستالينية والمنكشفون باضواء البيريسترويكا يدرون ماذا يفعلون حتى غلبهم حب الذات وراحة

الثبات على العقيدة الموروثة فحملهم على رفض البيريسترويكا (حتى هذه اللحظة) في دخيلتهم وفي كلامهم المعلن غير المنشور وليس امتناعهم عن نشـــر رأيهم في البيريسترويكا بصراحـــة الا زيادة الحاح في التشبث بالامجاد التى نالوها من التأييد المتصل للاشتراكية الماركسية فـــي ركب المؤيدين للسياسات السوفيتية في أحلك سنوات عنفهـــا ونكايتها بالناس : فاذا وقفوا اليوم منها موقف المناوىء الصريح تم افلاسهم من كل وجـه فقد أفلسوا بظهور الفساد في الذى كانوا يتفانون في الدفاع عنه ويفلسون مرة أخرى بالعداء للسوفيت الذى هـو الرمز الشامخ والمعلم الشاخص للركائز التى كـــانوا يستندون اليها في مجاهرة الدنيـــا بصواب المنهج اللينينى الماركسى • انى لا املك نفسى من المجاهرة بآرائى في صراحـــة ووضوح لأسباب كثيرة منهـــا سببان اساسيان : اولهما هـو حرصى على سلامة مسيرة البيريسترويكا لتعلق آمال كبيرة بنجاحها حتى انى اشجب كل حركة عنيفة داخـــل المعسكر الاشتراكى يثقـــل كاهـــل حملة البيريسترويكا وكل تهاون في اتخاذ الاجراءات المنشطة لها والحاميـــة عنها • فمن واجب الجماهير ان تقف منها موقف الوالد من الولد الحبيب فلا يظلمها بزيادة التكاليف ولا يهملها بالكف عن التنبيه الى وجـــوب السير الحثيث • ومن واجب أصحاب البيريسترويكا أن يستمدوا مـــن تأييد الجماهير لها قوة على دفع العراقيل • ولئن كانوا هم أكثر علما منى ومن امثالى بما هو حادث بين ظهرانيهم فقد لا أعدو الحق اذا قلت ان في امكان المتفرج المخلص المزود بوضوح الرؤية والمستخلص لعبر التأريخ واحداثه ان يتقدم برأى يكون من شأن حياده الأخوى المخلص الايمـــاء الى وسائل سليمة وأمينة قد تضيع من عين الشخص الغارق في المسئوليـة والمحاط بالمشاكل القائمة والموروثة لاسيما اذا كان مشدودا الى آيديولوجية محددة الأطار ترفع النور الأحمر على كل الاتجاهات غير اتجـاه واحـد

متعين بالذات ولا يفتقر الماضى القريب والبعيد الى أمثلة كثيرة شاخصة على احتجاب الرؤية الصحيحة من اعين أصحاب الشأن فسلكوا فى المصالح دروبا غير موثوق منها وتركوا دروبا أمينة ما خفيت على المتفرج المخلص •

ثانى السببين هو كون العالم على مشارف الوفاق الدولى المبشر بهزيمة النوايا الشريرة المتربصة بفرص السلام والوئام فانه على قدر تعثر السوفيت في الخلاص من ارث الماضى الثقيل الحاطم يكون تعرقل المسيرة الانسانية نحو حلمها الجميل في الاخاء الشامل أو التعاون الشامل، على الاقل ، فيما هو مصلحة لعموم البشر • ولئن كنت أسمع وأقرأ عن خيبة أمل كثير من اصحاب القضايا مع الغرب أو الرجعية المحلية حين يجدون نقصا فيحماس السوفيت القديم لمساعدتهم فأنى أجد موقف الدولة السوفيتية من القضايا السياسية خارج حدودها على عهد البيريسترويكا مرجحا ووجيها بقياسه الى موقفه عند الحرب الباردة والتسابق المهلك نحو أفدح المخاطر وذلك لأسباب ثلاثة حاسمة اثنان منها يتصل بالمصلحة المشروعة للسوفيت اتصالا مباشرا وهما :

١ ـ ان السوفيت ليس طرفا في التزام تعاقدى بمساعدة أعداء الغرب والرجعية حتى نهاية الزمان ولا هو وكيل المجاهدين والثائرين في التكفل بضمان نجاح مسعاهم • وللضرورات أحكامها سواء على الساحة السوفيتية أو على ساحة البلدان التى تخاصم الغرب في حقوقها فهل هى اذا تفاهمت مع الغرب على تلك الحقوق ستبقى طرفا في النزاع بين السوفيت والغرب الى جانب السوفيت ؟

٢ ـ النعمة المتصورة من السلام العالمى تستحق اى مسعى ضرورى لتحقيقها • ولنكن متذكرين دواما للاتحاد الاوروبى المقبل في عام ١٩٩٢

فانه سوف يكون قوة ثالثة معادلة للسوفيت ولأمريكا وان الاحتمال الأرجح هو حتمية ميله الى جانب امريكا في كل نزاع مصيرى يثور بين امريكا وروسيا وانه في حالة استواء الاحوال بمبعدة من شبح الحرب سيكون عونا للشعوب الأقل قوة فلا نتصور أن اتحادا من دول كثيرة ذات رأى عام داخلى ميال بقوة الى الحلول المنصفة ، تستهدف من اتحادها مضاعفة قدرتها على النهب والسلب فالأحتمال الغالب ان يكون اساس هذا الاتجاه في مثل عصرنا المقبل على قرن جديد مبنيا على نية الخير بصورة عامة والراجح ان تكون مصالحه أيضا متحققة في قدرة الشعوب على اختيار من تتعامل معه وليست في سوق يحكمها بطلان اثنان .

٣ – ان خيبة اولئك المناضلين والثائرين ليست افدح من خيبة الشعوب في خواء مائدتها من بركات اولئك الناس حتى بعد وصولهم الى مقام السلطة فانى من ركنى المتواضع امنح خيبتهم في الاتحاد السوفيتى مقدار ما يمنحون هم من خيبة شعوبهم فيهم وهو مقدار أقل من القليل وكثيرا ما ينزل تحت درجة الصفر ولربما كانت نتيجة بعض تلك الانتفاضات بعد نجاحها أشد وبالا على شعوبها من نتيجة اخفاقها ورحم الله سارق الاكفان الأول القديم ..

بعد العبارة القصيرة المتقدمة في الكتاب تأتى جمل قوية في وجوب الاسراع ونبذ التلكؤ و (الخروج من مستنقع النزعة المحافظة) وان الطريقة التطورية للاصلاحات المتسللة لاتنفع .. ليس لنا يوم واحد للاسترخاء .. لابد من مضاعفة الجهد وتعزيز وتيرته وكثافته .. (السطور السبعة الاولى من صفحة ٥٦) . هذه الجمل كلها بحاجة الى شرح وتعقيب ولكنى أكتفى ببعض الكلام في (مستنقع النزعة المحافظة)

وشيء من التعليق على عـــدم كفـــاية الاصلاحات المتسللة بالطريقة التطـــورية .

ان النزعة المحافظة شيء شائع في الايديولوجيات الأحادية النظر فليس واحدة منهـــا متحررة منهـــا فالركائز الاساسية التى قامت عليها الآيديولوجيا وضحى الناس من أجلها حتى أحلها محل عقائد أخـــرى كانت سائدة ، تطلب بطبيعتها الدوام في حياة الناس وتلك ظاهرة ملحوظة ليست في العقائد الدينية فقط بل في كل عقيدة دنيوية تؤمن بنفسها ايمانا قاطعا على أنها تاج الفضائل ، ولم توجد حتى يومنا هذا عقيدة دنيـــوية قاربت الماركسية في دعوى الكمال والخلود ، فليس مستغربا ألا تقاربهـــا عقيدة اخرى في التشبث بنفسها فالمشهود انه حتى البيريسترويكا نفسها تحاول التعكز على العقيـدة القديمـة نفسها حتى في محاولتها تغيير الواقع الاشتراكى المتولد منها . ولو أنصفنا الحقيقة فأنه بعد حذف انتفاع المنتفعين الحزبيين والمتحجرين في محاولة الدوام على المناهج القديمة فأن موقفهم من حيث المنطق والتوافق مـــع النفس هو الموقف المبدئى الآيديولوجى المستوحى مـــن صيغ القطع والحسم والحتم الواردة في طول النصوص وعرضها منذ أيام ماركس الأولى حتى أواخر ايام لينين . ومما لا يقبـل الجدل ان الأتيان بالجديد أو حتى الاعتراف بمجيء الجديد بعد الاحكام النهائية التى لا تقبل الهدنة هو التفاف حول تلك الأحـــكام وقبول بمـــا يختلف عنها أو يناقضها وأمثـــل على ذلك بمـــا يلى : ورد في وسط الصفحة ٥٩ من الكتاب كلام للرئيس غورباتشوف عن البيريسترويكا على أنها (... ثورية ... جذرية ... لا تقبل مساومة .) وقد مضى في اوائل الصفحة ٥٨ ان لينين نفسه اضطر نزولا على حكم الضرورة الى قبول شروط (مهينة وقذرة) في بريست ليتوفسك . فالواقع ان طـــلاب

التجديد في روسيا اليوم كما كانوا في غيرها قديما وحديثا يطلبون التحرر من كل شيء قديم يعرقل المسيرة ولا يبعد ان يكون ما يطلبونه انسلاخا كاملا من الماضى كما انسلخت بعض بلدان اوروبا الشرقية من الاربعين سنة المنقضية في قبضة التزمت والتحجر وغاية الفرق ان اوروبا الشرقية تسمى الانسلاخ انسلاخا كما فعلت بعضها في حظر الحزب الشيوعى ومسح الشيوعية من كتاباتها على حين ان حكومة الرئيس غورباتشوف تدارى عمليات الانسلاخ او ما هو في حكمه تحت عناوين اشتراكية وبالتبريرات المنتزعة من كلام هنا وهنا في أقوال لينين وماركس أو بأضفاء المرونة على نصوص كانت منذ ميلادها كالرخام الصلد لا يميل ولا ينحنى • ولا أظن أن منصفا يهمه مصير الانسان يأتى فيلوم غورباتشوف على تبطين غاية غير معلنة في صيغة واضحة الدلالة بشرط ان يكون حقا يريد التغلب على الصيغ الجامدة ، ولا نحتاج الى فضل ذكاء لأدراك ما في مساره من محطات تطلب كل منها ثمنا للمرور هو عبارة عن رمى اثقال من احمال الماضى لا من باب النكاية والتشفى بل من باب الانسجام مع منطق الاندماج في الحياة الدولية بجوانبها المتعددة فالمقاول الغربى لا يملك صبرا ولا وقتا للتوقف امام صيغ جامدة ، ريثما يتم تبريرها أو تسويغها أو القفز من فوقها فهو ليس كالموظف الحكومى المساوم في مصلحة رسمية تتحمل الخزينة العامة تبعاتها في التلكؤ والسلحفائية وانما يتغرم في خاصة ماله فيفلس في متاهات النظريات والتبريرات والتلكؤات • •

ان البيريسترويكا تملك بعض الوقت والحرية في التعامل مع الناس في موطنها وان يكن ذلك بشكل مائل الى التضيق على مر الأيام في منطق أحكام الضرورة المتزايدة للتطور والتلبس بروح العصر ، ولكنها أقل تحررا في تعاملها مع دول العالم فعلى قدر زيادة الشد والجذب بينها وبين

الدنيا من خارجها تفتر قابليتها في الداخل من وجهتين : وجهة المصارعة مع طلاب التزمت وعبادة الماضى ووجهة ضبط الجماهير في مسيرة صحيحة بلا عنفوانات منطوية على احتمالات غير سارة • والعملية ليست سهلة وهى اشبه بموقف بهلوان يمسك بالعصا في وسطها على حبل مشدود بين عمودين • ويكون مما يدعو الى الأسى ان يحدث الامور الثلاثة الآتية أو اى واحد منها بصورة جزئية او كلية : الأول وهو الأهم ، ضعف البيريسترويكا في الداخل بفقدان سيطرتها على مسار الأحداث أو من جهة عدم التعامل الأصح مع الدنيا من حولها • والثانى هو تشدد الغرب في طلب المحرجات التى يكون قبول البيريسترويكا للتزمت أخف منه ضررا • والثالث هو غفلة اليسار المعتدل والمتطرف عن وجوب اعانة البيريسترويكا وتسهيل الأمور عليها اما بجهل أو بنية سيئة أو بالانضمام الى التزمت ••

على اى حال ان كسب جماهير الناس هو اليوم كما كان في اكتوبر ١٩١٧ حجر الركن في اى عمل تريد البيريسترويكا ان تقوم به واى تغيير تريد احداثه •

بصدد الكلام عن عدم كفاية الطريقة الأصلاحية أو التطورية في معالجة الخلل والتخلف اقول ان التطوير نفسه شيء لا يرد في معرض الحاجة الى اصلاح الخلل والخطأ فالخطأ لا يكون علاجه الا بتبديله الى (صحيح) اى بتصحيحه ، فالتطوير يجرى في أمور صحيحة النمو وكانت بالأصل صحيحة البناء ولا نظن ان أيا من الأسس التى نهضت عليها انطلاقة الغرب كانت خاطئة في أساسها فهى انبعثت من اقتضاء الأحوال ولم تفرض بنظرية مقدسة نزلت على انسان لا دراية له بالاقتصاد ولا يعلم ماهى السوق والبنك والتجارة الخارجية الا على الورق • وأقول من باب

المقارنة انى لم أجد بقالا أو قصابا أو أى حرفى اعتيادى بارت مصلحته بسبب عدم الكفاية وقلة الخبرة فهؤلاء قوم اشبه بالفرع الغض للشجرة تميل يمينا ويسارا على مهب ريح الاقتصاد وليسوا اناسا يراجعون نصوصا من الحكمة الفلسفية فيخطئون في فهمها وتفسيرها ، ولم أجد في عمرى متعلما استطاع بعلمه أن ينجح في تجارة القطن أو الماشية فقد لا يكون رأى قطنا على شجيرته أو قطيعا في الحظيرة أو المرعى أو على طريق السوق الى البيع • اصلاح الخلل والخطأ والتخلف هو شبيه بعملية جراحية لا تتحمل التسرع والاستعجال ومجاوزة الواقع تحت عنوان الأسلوب الثورى واختزال الزمان فقد كفاه ان يكون اكتشافه بعين خبيرة بصيرة وان يكون علاجه بطريقة سليمة كفية • ان الرئيس غورباتشوف لم يوضح في كلامه طبيعة (مستنقع النزعة المحافظة) ولا اسلوب الخلاص منها ونوع العلاج الشافى لها فلا يكفى للتوضيح التصريح برفض الطريقة التطويرية والاصلاحات المتسللة ، فلا املك في ذلك الا الركون الى الاستنتاج فيغلب على ظنى انه تحاشى الصراحة دفعا للحرج المتأتى من ذكره طرقا للعلاج الثوري تخرج عن نطاق الاشتراكيه اللينينية الماركسية ، ورأيى فيه ، اى في العلاج الثورى ، هو أنه لا يكون علاجا ولا ثوريا ولا شبه علاج اذا كان عبارة عن حث الخطى وزيادة الدفع في السير على الطريق القديم بسرعة أكبر فان ذلك ليس الا من قبيل شحذ السكين القديمة للقدرة على الذبح في سهولة • لست اظن من حسن السياسة الأفتراض بأن التطبيقات الاشتراكية كلها كانت خاطئة لأفكار كانت كلها صحيحة فأن شيئا من التجرد العقائدى مضاف اليه شيء من المقارنة بين الذى جرى في السوفيت واوروبا الشرقية وبين الدول المتقدمة من حيث التقدم كاف للاعتقاد بأن جانبا كبيرا من الخيبة حصل من لا واقعية الاشتراكية القهرية بصيغها وأحكامها المعاكسة

لطبائع الناس فان من الحقائق التى لا تحتاج الى مناقشة أن (الانسان حريص على ما منع) حتى ولو كان الممنوع من غير اللذائذ المطلوبة فكيف باللذائذ التي تأتى في أول قوائم الرغبات كالحرية والحافز والتملك ، وما لم يكن بالنفوس عطل الاحساس وشلل الارادة لكان مما يتنافى مع انسانية الانسان بل حتى مع حيوانيته ان ينقاد للامر الفوقى بلا مناقشة من جانبه وبروح الأستعلاء ونية الاذلال من جانب الآمر مع تلقى أوصاف الخيانة والانحراف والروح التروتسكية وما هو أشد عند كل مخالفة تبدر منه تجاه فرامين الكهنوت الحزبى • ان الدكتاتورية ياسادة ياكرام مهما بدلت من مظهرها وملبسها ومعلمها وشعارها وبشائرها هى عملية طرح لكرامة الجماهير وممتلكاتها وعملية جمع لهذه الكرامات والاموال الى خرج الدكتاتور ثم هى قلب مذلة الملايين الى عزة الطغمة الحاكمة وليس لها معنى آخر أحلى من هذا ، وانى لاستغرب لجوء الدكتاتور الى تكلف التبريرات لتفرده بالسلطة عن سبيل تأكيد حرصه على كرامات الناس وحرياتهم ومباهجهم وانه لا يريد من الدنيا غير صلاح الناس في الدنيا وفي الآخرة فهو بكل تأكيد غير محتاج الى هذا العناء الزائد عن اللزوم ولا احد في الدنيا يلومه اذا تخفف من أعباء السهر على نومة الهناء لسواد الناس فما بال الحزب البلشفى أو أى حزب آخر مثله يلطم الخدود ويشق الجيوب على ضياع البسطاء الخيرين من المواطنين في ممارستهم لحريتهم واختيار نوع حياتهم وسياساتهم فاذا ظهر من الناس رأى صريح في وجوب تغيير القوانين والشعارات لم يبق عند أحد عذر وتبرير في فرض النظام الموروث عليه بدعوى ان التجديد أو التغيير يزيد من فائض القيمة عند الامريكان وأبالسة الجحيم وانه ضرر شتلات البطاطس وفرو الثعلب ونقوش الطاووس : دعوهم لخيارهم أجزل البارىء ثوابكم وثواب كل سلطان مقتدر يوسع بطوعه من أطواق

الحظر والفزع المحبوكة على الاجساد والارواح : خذوا الدنيا ببساطة أكثر وبتشديد أقل وارفعوا الأكمام على الافواه والاختام على ما لا أدرى ودعوا الألسنة تلوك الكلام في أشداقها ووسعوا لخطى الناس في ذهابهم وأيابهم ورقصم وصخبهم فلهم رب - في عرف المؤمنين منكم - أو طبيعة أنجمتكم وانجمتهم - في عرف الملحدين - وكلكم ، حاكمين ومحكومين، في قبضة الخالق أو دستور الطبيعة ظلال ستزول وذكريات ستتصل وتحول وقد قال الشاعر منذ اكثر من نصف قرن نصف البيت الآتى :

(انما الناس سطور كتبت لكن بماء)

وقال آخرون قبله بقرون وبعده بعقود فليكن مساسكم بالأشياء والأشخاص على قدر ما تحتمله حياة محدودة من الحاح واعنات وتيقنوا أن النزول على رضا اصحاب الحق من عامة الرعية ، نعم الرعية ، واجب شريف وكريم في حد ذاته وأن غلته على جانب عموم الشعب تكون أضعاف أضعاف أضعاف ما تتنازلون عنه من التفرد بالقرارات الحاسمة حتى بفرض أنها تئول حالا ومباشرة الى مال ولآل في خزائنكم • وتجاوزوا جانب الوعظ من قولى هذا وخذوا لبه انه يفيدكم وكان خليقا ان يفيد قول مثله رجلا مثل شاوشيسكو لو اصاخ السمع الى كلمة الحق •• على اى حال اقول رغم ادراكى لصعوبة التوفيق بين تنفيذ التصحيح وبين الأبقاء على صيغ يجب أن تصحح ، أقول ان عملية البيريسترويكا في الدولة السوفيتية وعملية التصحيح في اى دولة اخرى لا تنجح بالماكياج والباروكا والمانيكور •• ولا يعدو دور التجميل والتنقيش وكلمات التحميس والتحميش الا دور المسكن الوقتى الذى فيه نقيصتان حاسمتان : أولاهما أن العلة تبقى ماضية في التفاقم • والثانية هى أن مفعول المسكن يتعطل نهائيا بتكرار التعاطى فلا يبقى في الختام الا جماهير الشعب

الصاخبة المخذولة في آمالها فأما ان تداوى غضبتها بالحديد والنار أو يؤخذ رأيها في الأمور بلا خداع ومواربة ، وأرى اختصار الطريق الى الحريات العامة أولى واسلم وأصلح من كل الوجوه فلا داعى لتأخيرها ولا مصلحة في منعها بالقوة لأنها ستفرض نفسها فقدارتفع بالبريسترويكا والغلاسنوست الغطاء عن فم القمقم وخرج منه المارد ان لم يكن بكل جسمه بعد فبمقدار ضخم لا يسهل اعادته الى باطنه ..

بعد الكلام المتقدم وفي منتصف الصفحة ٥٦ يمكن التقاط رؤوس اقلام هامـــة منهـــا :

١ ـ ان التصرف بطريقة ثورية لا يتضمن بالطبع اندفاعا منهورا .

وهو كلام رصين ومقبول وواجب النفاذ وتؤيده الفقرة التالية :

٢ ـ فالثورة تحكمها قوانين السياسة .

هذه الفقرة تتضمن شيئا من تعديل ما سبق من قوله : (ليس لنـا وقت الاسترخاء ولا ليوم واحد) وان الطريقة التطورية والاصلاحـــات المتسللة لا تفيدان في العلاج .

ونجد في الفقرة اللاحقة زيادة تعديل :

٣ ـ وينبغى تجنب تخطى مراحلها وتخطى انفسنا .

والذى يبدو لى من ذلك ان الرئيس غورباتشوف قصد من عبارات التنشيط والتسريع منح القائمين بالبيريسترويكا الصلاحيات الكاملة لتفعل ما تراه ضروريا دون أن تستطيع البيروقراطية رفع اصبع الاعتراض . ثم قصد بكلماته اللاحقة الداعية الى التريث التخفيف من اندفاع الجماهير في المطالبات الحدية ، وله العذر في ذلك فأن البيروقراطية مـــن جهـــة

والاستعجال من الجهة المعاكسة من المعوقات التى يحسب حسابها ولكن يجب على اى حال ان تبقى وقدة الحماس الجماهيرى متوهجة فبغيرها لا يؤمن من الانتكاس ولا يضمن تحقيق الديمقراطية ، فالمصلحون في قمة الهرم يمكن ان يتعبوا أو يهابوا أو يقنطوا ولكن الجماهير لا يركبها العياء في طلب الحرية لأنها جزء من حياتهم ولو كانوا ساعين في قضية غيرهم لتعبوا هم أيضا بطول العطاء والبذل والكلفة .

تأتى بعد ذلك فقرة اخرى هامة هى :

٤ - (ووفقا لنظريتنا فأن الثورة تعنى البناء ولكنها تتضمن التدمير على الدوام .. تدمير كل ما هو عتيق وراكد ويعوق التقدم السريع . بدون تدمير لا يمكنك ان تنظف الموقع لبناء جديد . وتتمثل المهمة الآن في خلق اساس للتقدم نحو حدود نوعية جديدة) .

هذه العبارات تتضمن اشياء كثيرة تلخص اهم جوانب البيريسترويكا والواجبات التى تكفلت بها وسط الصعوبات التى بعضها خطير جدا واخطر ما فيها شيآن هما : ١ - تدمير ماهو عتيق وراكد يعوق التقدم . بدون تدمير لا يمكن تنظيف الموقع لبناء جديد . ٢ - خلق اساس للتقدم نحو حدود نوعية جديدة .

الى حد بعيد تتمثل هنا حيرة البيريسترويكا فهى تتكلم في وجوب تدمير العتيق حتى يمكن نهوض بناء جديد . وتتحرى عن خلق اساس جديد لنوعية جديدة !؟ (هذه العبارة تسبق الفقرات الاخرى تحت البند ٤ ولكنها نزلت الى ما بعد تلك الفقرات قصدا لان هذا مكانها في تعقيبى) فالمسألة اذن وبكل بساطة هى (تدمير القديم واقامة بناء جديد مقامة على اساس من نوعية جديدة) . انى وان كنت لا ارضى لنفسى ان احمل

كلام الرئيس غورباتشوف أكثر مما يحتمل لكنى لا أعزو اليه معنى هو أقل من الحد الوسط لما يعنى والا كنت مقصرا تجاهه وتجـــاه القارىء وتجاه ادراكى لدلالات الكلام • فالبناء واضح المعنى وكذلك التـدمير • وتوقف البناء على التدمير شيء لا يخطئه النظر فما هو كشط للطـــلاء القديم تمهيدا لطلاء جديد وانما هو تدمير للقديم •• للجدار نفســـه ! ولايمكن حمل دلالته على تدمير أشخاص البيروقراطية لسببين ، أولهما ان خلو مكانهم يسمح فقط بملئه مجددا بأشخاص آخرين • وثانيهمـا ان البروقراطية تمثل فلسفة موروثة • واذا لم نغالط أنفسنا فـأن أقرب صور التطبيق لنظرية ما الى تأريخ نشوئها هى أصحها في مقاييس النظرية نفسها فليس من المنطق ان يـكون الحواريون أقـل فهما للمسيحية مـــن قساوسة أيام مارتن لوثر شأنهم شأن خلفاء لينين بمقارنتهم الى الجيـــل الذى يأتى بعدهم • ان الفرق الوحيد بين ما اقوله أنا وما يقوله الرئيس غورباتشوف هو ان كلامى صادر من شخص قصارى التزامه بمـا يقول هو صوت ضميره الصارخ بوجوب الافصاح الصادق الأمين عن عقيـدته على حين يجد رئيس الدولة السوفياتية نفسه مشدودا الى اعتبارات كثيرة في منتهى الخطورة والدقة والحساسية مـــا بين دولية ووطنية واقليمية وحزبية وآيديولوجية في بعدها التأريخى والحاضر والمستقبلى • على أنى أتحد معه في رجاء النجاح لمسعاه بحرارة تعـــادل حرارته في الحمـاس للموضوع ، ذلك انى أعانى بل اعيش محنة تورط عامة الدنيا في مشاكل الماركسية سواء منهم من آمن بها ، ومن وجدها معينة على تذليل بعض الصعوبات النضالية فصادقها ، ومن خاصمها من وجهة المصلحة أو مـــن وجهـة العقيدة فقـد استعصى علىّ تصديق اسسها الفلسفية لمنافاتها مـع وضوح الاشياء التى تراءت لفهمى ولتعارضها مع مصالح الانسانية الشاملة في تطبيقاتها المبنية على فصل الطبقة العاملة من مجموع البشـــر وقطعها

السبيل على محاولات احـــلال التفاهم العام في تخطيط منهج يبقى على الحرية الشخصية ويحقق نيل الافراد والجماعات لمستحقات أنشـــطتهم الخلاقة كل على حسب ما قدمت يداه بتثمين غير مفتعل أو محـــاب وفي غياب كلى لأسباب التخويف المفلسف والدكتاتورية المنظرة ومصـادرة الحرية المعللة بالمصالح الملفقة وقد ادركت بينى وبين نفسى منـذ أواخر الاربعينات كثيرا من عناصر الأفتراض في التأريخ والأقتصاد اعتبرتهـــا الماركسية حقائق مفروغا من صحتها واولها نظرية المراحل التأريخية ثم الكفاح الطبقى عبـــر التأريخ ومقولات التناقض وما اليها ... وادركت بوضوح أكثر عقم التضحيات التى يقدمها شبابنا في تأسيس حكم شيوعى بين شعب لا كيان له مستقلا به ولا اقتصاد فيه بمعنى العصر ، يعيش ظرفا داخليا في تخلف ما قبل ثلاثة آلاف سنة وظرفـــا دوليا لا يسمح بالتمرد عليه فضلا عن استحالة قهـره فتـــكون حصيلتها امرين : اولهما تمزق الشباب الى كتل متخاصمة بسبب الخلاف الآيديولوجى في ارجحية الكفاح القومى ام الطبقى • وثانيهما استحالة تحقيق الأهـــداف الممكنة بسبب انصراف الجهود بالآيديولوجيات المختلفة لتضيع الجهود والتضحيـــات ضياعا كـــاملا مضافا اليه أرث ارعن مـــن الدروشة السياسية والهلوسة الفلسفية الفارغة يهون الى جانبها ما يسمى بالطفولة اليسارية وهـــو ارث لم يزل يشاغل الأذهان الضالة بأحلامهـــا الخائبة ويقودها الى كراهيـــة التحديث الذى رفعت رايته البيرسترويكا والغلاسنوست ولم يزل مشعله مرفوعا على سواعد مفتونين بالكفاح الطبقى منقطعين عن روح العصـــر وروح كل عصر فيا غرابة الموقف من شراذم لا تكاد تقف على اقدامهـا جوعا وفقرا وبعدا من أقل بصيص أمـــل مكذوب فتروح تتصدى لعلاج مشاكل العالم بالترويج للأممية والدعوة الى رد تيارها نحـــو وجهتهـــا الصحيحة لما قبل غورباتشوف تفعل ذلك في نداء لا يسمعه أحد وفي بلد

خراب ضمن كيلو مترات مربعة لا يحس بها الزمان والمكان وتدعو الى شيء مستحيل التحقيق في ذاته .. عانيت هذا وأعانيه حتى طفح كيلى فصارحت الناس منذ أول الخمسينات (من اربعين سنة) بجانب من آرائى في وجوب تعديل الماركسية تعديلا جوهريا حتى تصبح شيئا مقبولا في طبائع الناس وبينت رأيى في ستالين حتى قلت فيه ان الشيوعية نفسها لا تتحمله .. الى آخر ما قلت ثم كتبت منذ سنة ١٩٦٠ .. فأنا انسان مرشح من زاوية انسانيتى لأكون في حرص غورباتشوف نفسه على نجاح مسيرته فلا عجب أن أتدفق بالحماس الحقيقى في وضع النقاط على الحروف ومتابعة آراء كتاب (البيريسترويكا) على حسب ما اجدها مستحقة للشرح أو التعديل أو المعارضة وقد أقرأ ما وراء السطور فأقول فيه ما هو واجب شرحه وربما كان سكوتى في احوال كهذه واقعا في باب بخس الذات وظلمها لانى بنفسى ومن غير حاجة الى وسيط أتأثر سلبا بفشل البيريسترويكا واتأثر ايجابا بنجاحها لأن الناس من حولى ولاسيما المتطرفون منهم تهدأ أحوالهم ويخف عنفوانهم اذا وصلت البيريسترويكا الى هدفها بما ستحققه من الاسترخاء في العلاقات الدوليه وفي تضيق دائرة الحركات البهلوانية في السياسات الحزبية . ومما يزيدنى حساسية في المسائل الهامة هو انى بطبعى ارفض ما هو غير منطقى حتى اذا وجدت قصبة خارجة بغير نظام من عش فوق شجرة تعكر مزاجي على قدر شذوذ المنظر ولا تسل عن مدى استنكارى لأطالة المفاوضات والمحاورات بين أطراف مختلفة محتاجة الى التفاهم مضرورة بالتخاصم ، على اشياء لا تثمن بربع الكلفة المصروفة في التنازع عليها ، فانى اوافق في ساعة واحدة على شروط يتراضاها طرفان متحاوران بعد سنة أو أكثر من طلوع الروح في الاجتماع والانفصام والقطيعة والتواصل ، فما كان أنبل وأعظم وأجمل موقف الجنرال دوغول في حسمه مشكلة الجزائر !! ولا

أقول أنه نزل فيها بل صعد فيها الى تقبل حكم التأريخ عملاقا مرتفعا على السفاسف فأراح شعبه وفك عقدة ذات خيوط متعددة بما أفاد اوروبا وافريقيا والامتداد العربى في الشرق الاوسط عموما وخرجت منها فرنسا نفسها أعز جانبا واوفر أمانا وأقوى اقتصادا • ان المكابرة في الواقع شيء مذموم في ذاته وبعيد من حكم الطبع السليم حتى بفرض أنها يمكن أن تنجح بعد العسر الشديد والكلفة الباهظة بل انها ذميمة وغبية أيضا في كل الاحتمالات لأن الغلبة على حكم الواقع بما يضاده لا تعدو أن تكون نصرا وقتيا ينفجر كالبالون المنفوخ فوق احتماله ! ثم اننا نتساءل كم مرة تستطيع دولة مهما عظمت امكاناتها ان تكابر وتثابر في المكابرة وما حصيلة هذا الجهد المتصل في ميادين متعددة أغلبها خالية من الربح المادى ، وما الحكمة السماوية في ترك المصالح التى تتجاذبها جهات كثيرة في التجارة الدولية للانشغال بتكلف قهر الجماهير داخل البلد مع ما يرافقه من اضطراب الأحوال وذهاب الأموال وفقدان الأمان والضمان والأستقرار والدوران معه في حلقة مفرغة تتصل بدايتها بنهايتها حتى يوم القيامة فليس للقهر والأعنات خاتمة مريحة للقاهر فلابد له من تنصيب نفسه شرطى مرور في ميدان القهر والغلبة ينظم السير الى السجون وما هو شر من السجن الى يوم مماته • ولست أشك في ان الأحوال بلغت في دولة السوفيت حدا من طلب التغيير وقلب الصفحات لا يمكن ردعه بسهولة أو بصعوبة محتملة فأما ان يستجاب طلب الجماهير واما أن تطوى صفحة البيريسترويكا بتدخل الجيش ورجوع التحجر في عنف وضراوة حتى حين •• وتلك خاتمة تكون أثقل على طاقة التحمل من كلفة احتمال عهد ستالين لان تفتح الآمال شحذ الاحساس العام بقرب الفرج فاذا خابت هذه الآمال تكون أشبه بحال سجين أخذ البشارة بالعفو عنه حتى اذا بلغ باب السجن ليخرج الى الحرية اعيد قسرا وقهرا الى زنزانته •

تستمر بقية الصفحة ٥٦ والنصف الاول للصفحة ٥٧ في وجوب التصدى بقوة لأى محاولة تعويقية من اصحاب العقول المتحجرة وتتطرق الى الصعوبات المنتظرة في مثل عملية البيريسترويكا والى أشكال من العراقيل بعضها متعمد وبعضها ناشىء من (عدم التصرف ، اللامبالاة ، الكسل ، عدم الشعور بالمسئولية ، سوء الادارة ..) وتعتبرها جميعا انواعا من مقاومة اعادة البناء . وفي وسط الصفحة ٥٧ تبدأ فقرة جديدة تستحق منا شيئا من التعليق اذ تقول : (وتتمثل احدى علامات اى فترة ثورية في تعارض واضح بدرجة أو أخرى بين المصالح الحيوية للمجتمع الذى تستعد طلائعه لتغييرات حيوية وبين المصالح العاجلة الحيوية للناس ، والبيريسترويكا تضرب بشدة هؤلاء الذين اعتادوا العمل بالطريقة القديمة ..... وربما كان على كل امرىء ان يقدم تضحيات في المرحلة الاولى من البيريسترويكا ، ولكن على البعض أن يتخلوا طواعية عن الامتيازات التى لا يستحقونها ....) .

والكلام كله جميل ، ولكل جزء منه موضع وظرف موافق له فاذا صادف ظرفه وموضعه كان واجب الاتباع ، ولكن للمسألة مع ذلك حيثيات لا يسوغ تجاهلها :

واقول ابتداء اننا اذا قبلنا ، دفعا للمناقشة ، الصفة الثورية للبيريسترويكا فقد وجب تحديد موضعها في واحد من نوعين من الثورات لمعرفة مأتى هذا الذى يقوله الكتاب من حتمية نزول مستوى المصالح العاجلة للناس تحقيقا للمصالح الحيوية للمجتمع ومن وجوب تضحية كل امرىء في المرحلة الاولى للبيريسترويكا . والمشاهد في الأغلب لأعم ، ان لم أقل في كل الأحوال ، ان الثورات التى تقع على عهد الرخاء والشبع هى التى تنزل بمستوى معيشة الناس وتلك نتيجة قد تكون غير قابلة

التجنب بسبب اختلاط الأمور واختلال الموازين واضطراب الاوضاع في أية حركة عنيفة لاسيما اذا حدثت في مجتمع مرفه لأنها تؤدى الى توقف اعداد هائلة من المنتجين المرفهين عن الانتاج وعن النشاط بصورة عامة ريثما تهدأ الأحوال وتطمئن النفوس وتعود المياه الى مجاريها • وقد يجوز ان أمثل لذلك من باب زيادة التوضيح بالتوقف الوقتى للنشاط المنتج عند أيام الاعياد والمهرجانات مع أنها خالية من العنف والخوف ولها مثال أضيق في انشغال أسرتى العروسين في افراح الزفاف بالضيوف والمعازيم لأيام متعاقبة في المجتمع القبلى او شبه القبلى ••

أما الثورة التي تقع في بلد منهك فانها اذا كانت على شىء من الانضباط وحسن القيادة كانت خليقة أن تجد للعراة الجياع في الأيام الأولى للثورة شيئا من الكساء والغذاء فالموجود منهما في الأسواق والأهراء والمخازن يكفي لخلق ترفيه كاذب يصلح مادة للاعلام وللمباهاة بتحقيق الأماني الى فترة قد تكفي ، أو لاتكفي ، لايجاد تدابير دائمة •

والمعلوم من حيثيات البيريسترويكا أنها ، سواء كانت ثورة أم تصحيحا ، جاءت في غير وقت الشبع والكساء فكان المنتظر منها الى حد ملحوظ ان تأتي بالراحة والرفاه معا لاسيما أن القاعدة الصناعية موجودة بهيكلها المادي وان المشاريع الزراعية قائمة في أيدي المتحجرين فتكون النتيجة السلبية المفهومة من (تعارض واضح بين المصالح الحيوية للمجتمع وبين المصالح العاجلة اليومية للناس) ومن وجوب تقديم التضحية في المرحلة الاولى للبيريسترويكا ، ناتجة من أحد السببين الآتيين أو من السببين معا : أولهما هو احتمال كون القائمين بالبيريسترويكا لم يأخذوا الحيطة اللازمة لمواجهة النقص في المصالح وفي الأنشطة المنتجة اعتقادا منهم بأن بشائر الخلاص في اعلان البيريسترويكا والغلاسنوست كفيلة

بزيادة حماس الجماهير لدفع عجلة المجتمع الراكد نحو التقدم • والسبب الثاني هو أن انطلاق الزخم المكبوت في قمقم التحجر كان من القوة بما يفوق طاقة أناة المكبوتين للسيطرة على العواطف والثأر من الزمان والمكان • وقد ظهر من القلاقل العرقية ان الحلول المفروضة بالقوة والمستلهمة من ظاهر أحكام النظرية المادية الماركسية اللينينية لم تكن في حقيقتها غير طلاء مموه على سطح ممهد بالقهر والتخويف ، فقد برز رد الفعل بين الآذريين والأرمن بأعنف من عداء الايرلنديين الكاثوليك للحكم القائم في ايرلندة الشمالية المحمية بالانجليز وذلك درس أليم من نتائج تزييف العواطف بالتخريجات الآيديولوجية والفلسفية فالمنظرون العباقرة الذين يردون جل أسباب الخلاف بين بسطاء الناس الى (فائض القيمة) الممتصة من دمائهم الى جيوب المستغلين ما كانوا في سعة من أمرهم للاعتراف بوجود أسباب أخرى غير مادية تنبع من مكامن النفس قد تثير الضعيف على الضعيف والعامل على الفلاح والفلاح على المتسول فقد كفى بنظر أولئك العباقرة ان قدموا الترياق الشافي من كل الأمراض في شكل حل جذري بالاشتراكية اللينينية الماركسية فتبين بالتجربة المريرة ان الترياق نفسه بحاجة الى ترياق مضاد • ان المخلصين للبيريسترويكا من غير القادرين على عمل شيء الا رجاء الخير لها وبذل الرأي لأنارة طريقها [على افتراض ان الرأي يصل انظار القائمين بالبيريسترويكا وهو احتمال بعيد] يتوجسون خوفا من مغبة استفحال القلاقل وذيوع التحلل ونبذ المسئولية بما يوقظ احتمال عودة التحجر فيكون ذلك سببا في تعطيل جزئي أو ملحوظ لفاعلية البيريسترويكا من باب درء التوقف الكلي واستبعاد أسوأ الاحتمالات • لقد سمعت تعليقات من ناس محبين ومؤيدين للبيريسترويكا تضبب المنظر في أعينهم بسبب تفاؤلهم الطاغي في ثمرات القفزة التي تمت نحو التجديد واعادة البناء حتى اصبحوا

مستيقنين من فرش الطريق أمامها بالورد والعشب الأخضر فلا يقيمون حسابا خطيرا لمغبة النكسة المحتملة وكفى بنظرهم سببا للامبالاة أن النتيجه مضمونة بانطواء صفحة الستالينية البريجنيفية وطغيان الموج الهادر الى المد المكتسح ، وهؤلاء الطيبون هم من النمط الذي يرحبون بالجيد وينكمشون من الردىء بلا فاعلية ذاتية أو جماعية في التأييد المجدي والمعارضة المجدية فتراهم في حياتهم اليومية أيضا ينبعثون الى الحركة من ايحاء ظواهر الاشياء فلا يحملون معاطف المطر الا اذا كانت السماء ممطرة أو منذرة بمطر وشيك.ولئن كنت متساهلا مع النفس في خاصة شأني فأني فيما يتصل بمصلحة الآخرين ، لاسيما في المصالح العامة ، شديد الحذر فيما أقول وأفعل ، ورغم كوني لا أملك قوة تنفيذية فأني أحتاط في رأيي المنشور فلا أقول غير الذي انتهى فيه الى قناعة كاملة ، فلا أبدي توجسي فيما أقوله هنا من احتمالات مغبة البدايات غير المريحة الا لفداحة الخسارة الكونية المؤكدة من اخفاق البيريسترويكا ولا أعدو الحقيقة اذا قلت ان مصير الانسان متعلق في يومنا الراهن بقضيتين خطيرتين أولاهما هي مآل البيريسترويكا فالراجح المؤكد ان نجاحها هو تجاوز عرقلة ضخمة جدا جدا في طريق السلام والوئام وفتح لباب واسع جدا جدا بوجه الأمل في الخير العام وان اخفاقها هو في أرجح الاحتمال من نوع عصور الجليد التي كانت تغمر وجه الأرض فيتشرنق كل جهد كريم وفكر مضيء الى آماد لايحاط بمداها وان عشرة أعوام في الحياة المعاصرة من فترة الجمود تعادل في خطورتها عشرة آلاف عام من سريان عصر الجليد قبل نصف مليون سنة فاذا جاوز الجمود نفسه الى القطيعة والحرب الباردة فالأحتمالات لايمكن التنبؤ بها وبمدى ويلها وثبورها .

والقضية الثانية هي ترسانة الأسلحة النووية المتراكمة واحتمال

انفلاتها من الهيمنة الدولية على انتاجها • ومن غريب أمر الناس أنهم لايحسون بخطورتها الكاملة ولا ربع الكاملة ويعتبرونها من قبيل لعبة مسلية يمارسها الكبار في استعراض للعضلات البطلات • ان يقيني حاصل بأن غالب السبب في دفع أصحاب البيريسترويكا الى سلوك سبيل المهادنة وفتح الصدر لما كان محرما منذ بضع سنين هو خوفهم الحقيقي من الجهنم [مع ألف لام التعريف] المختومة في قماقم القنابل النووية التي اذا فتحت فاها تهاوت الانسانية في سعيرها كما تتهاوى الفراشات في ألسنة حريق الغابة • صحيح أن علاج الجمود أمر حيوي في حاضر شعبهم ومستقبله ولكن الحاح الرعب النووي يستطيع أن يعتم على قضية الجمود : ولو تيقن أصحاب البيريسترويكا من ان علاج السلاح النووي لايكون الا ببعث ستالينية جديدة لحمل أمريكا على الدخول في مسابقة نزع السلاح لكانوا أحرياء أن يفعلوها ، فاذا كنت أنا مكانهم لفعلت ذلك حتى بفرض انهم ماكانوا يفعلونه لأن مهالك هذا الرعب يترك كل بلاء آخر سواها وراء ظهرها بمسافات فلكية • ان البيريسترويكا أو أية عملية تصحيحية أخرى كانت ستقوم في يوم من الايام ولكن ليس بالسرعة واللهفة التي استهلت بها بدايتها في يد غورباتشوف وصحبه لولا الرعب النووي الذي يهون الى جانبه أية كارثة أخرى • وليس من شك أن الوصول الى تفاهم تام حول السلاح النووى لا يمكن بدون الاطمئنان الى سلامة نية (المعسكر الآخر) ولن يحصل اطمئنان لدى الغرب اذا بقيت روسيا قلعة مغلقة بوجه كل ما هو غربي فلابد من الانفتاح وكشف الأسرار ورفع الأستار من الجانبين • ان الرعب النووي بحد ذاته يبدو في نظري ونظر أي انسان ينعم النظر في الحقائق هو المفسر الأقوى للسهولة الزائدة التي سلمت بها روسيا التخلي عن الهيمنة على أوروبا الشرقية وسحب جيوشها من جارتها افغانستان فلولا ان تفاهم الغرب معها على التعايش الخالي من

التهديد النووي والحرب الماحقة مرتبط بهذه الخطى الحاسمة لكان من الأصلح لها ان تكون أمينة على نفسها في اتفاقات واضحة فيما يخص الحرب والسلام وتبقى في الوقت نفسه محتفظة بنفوذها ومكانتها في أوروبا الشرقية فالنوايا الطيبة ، اذا كانت موجودة ، تجد مجالا أوسع لفاعليتها اذا انتشرت في مساحات أوسع وبين ناس أكثر عددا • ان يقيني هو انه اذا نجحت البيريسترويكا فسيأتي يوم غير بعيد تتضافر فيه جهود الدول الكبرى وحواشيها المتابعة لها من الدول الأقل شأنا لوضع حد نهائي أو شبه نهائي للاستبداد والسطو والأرهاب المعرقل لسير البشرية والمخل بكرامتها والقاتل للمصالح وذلك في اطار من الشرعية بقرار من مجلس الأمن أو الأمم المتحدة أو ما قد يقوم من مؤسسات دولية جديدة يكون لها الحول والطول ، ويلاحظ على مسار هذا الحدث عامل مشجع وعامل معرقل : أما المشجع فهو موقف الاتحاد السوفيتي الممتد من البيريسترويكا بما هو واضح من نتائجها الايجابية على الساحة الدولية وفي السياسات الداخلية• أما المعرقل فهو تشدد الصين في منحاها المضاد لروح العصر بعد مذابح أنصار الحرية في سوح بكين ويزيد من خطورة موقفها كونها تملك حق الفيتو في كل قرار يصدره مجلس الأمن • والوقت لم يزل مبكرا على كلام من هذا النمط ولكن السياق أفضى اليه • ولا أظن الصين قادرة على الدوام في سيرها غير العصري اذا تم تفاهم الغرب والسوفيت ولاسيما بعد قيام الأتحاد الاوروبي الذي سوف ينتصب شامخا الى جانب الشامخين في مدى ثلاثة أعوام •

من مجمل هذه التصورات المستندة الى قاعدة ملحوظة من الحقائق والمصالح أصل الى الاقتناع بأن استمرار البيريسترويكا رغم المخاطر المحلية والاقليمية في اطار دولة السوفيت الشاسعة مطلب انساني عام قبل

ان يكون مسرحا تمارس فيه الجماهير الغاضبة الصاخبة تمرين عضلاتها أو تفريغ مكبوتاتها فهي اذا أدركت دورها التأريخي المقدس وكانت بمستوى الأحداث وعند حد مقتضيات المصالح الانسانية الكبرى ومصلحتها الذاتية لأعانت نفسها على تحقيق أهدافها القريبة والبعيدة بالابتعاد المطلق عن كل شيء يعرقل سيرة البيريسترويكا اسقاطا لحجة أي شخص يفتعل الحجج لأجهاضها من جهة وتضع العين على أي انحراف قد يحدث في سياسة حكوماتها عن منهج البيريسترويكا والأنفتاح من جهة أخرى فان قضايا ضخمة جدا جدا هي الآن في الميزان ، ومن مفارقات الدهر ان يكون حامل الميزان في قبضة أولئك الجماهير الصاخبة في أكناف دنيا السوفيت وهي لاتدري ، ومن المفارقات أيضا ان تكون هذه الجاهير بحاجة الى لينين جديد يضبط خطاها ولغاها ، ومفارقة ثالثة هي ان شخص غورباتشوف لايستطيع القيام بدور لينين بين الجماهير لانه في رأس الدولة شخص حكومي يتوجس منه رجل الشارع فان لينين نفسه فقد فاعليته الجماهيرية بعد نجاح ثورة اكتوبر . فالعامل النفسي المتمثل في الغليان والثوران هو الذي ساعد لينين على الانتصار في اكتوبر ١٩١٧ ، والعامل النفسي هذا هو اليوم أحد المعيقات الخطيرة في طريق غورباتشوف فما أفدح خطأ من يتجاوز نفسية الانسان الى المادة الميتة في تفسير التأريخ .

اننا نعيش عصرا بواقعه الخطير المكفهر يطلب من كل انسان واع ان ينحو منحى السلام الحقيقي الشامل القائم على التقارب والتفاهم [أو الذي ينبغي أن يقوم] بين الشرق والغرب حتى لايبقى شرق وغرب يتميز بعضه عن بعض ، وليس السلام الستاليني الذي كان قائما على تفريق الدنيا الى دار حرب ودار سلام ويكون فيها ستالين نفسه حمامة السلام والحمل الوديع والملاك الطاهر وألوان طيف الشمس .. فاذا كانت الصيغ

الفكرية والسياسية والتأريخية الدارجة والمعترف بها كمنهج أو مناهج للتصرف قاصرة عن تحقيق السلام فلتنهض الكوزموبوليتية من رمسها ولتخط خطواتها التي شوهت على يد أعدائها ، على أي صورة تكون الى منع الحرب • واذا خابت الكوزموبوليتية فلترفع الأناركيزم Anarchism [تعني «بلا حكومة» وشاعت في الكتابات العربية بصيغة «الفوضوية»] أعلامها فتخرب الحكومات اذا لم يفد شيء في منع الحرب غير تدمير الأنظمة • خير لنا ان نعيش في كهوف البدائية من أن نفنى بأحدث موديل علمي •

من العبارات التي تدل دلالة واضحة على معاناة البيريسترويكا من المصاعب عبارة ارجع عليها في أوائل الصفحة ٥٧ يقتضيها سياق الكلام في مخاطر فشل البيريسترويكا • تقول العبارة مايلي : « لقد ازداد جو مجتمعنا توترا مع تزايد جهد البيريسترويكا عمقا • وسمعنا بعض الناس يقولون : هل كان هناك مايدعو الى بدء كل ذلك على الاطلاق » وبعد سطر واحد يقول : « البعض يرتعدون حتى للفظ الاصلاح بيد ان لينين لم يكن يخشى هذه الكلمة بل علم البلاشفة أنفسهم ان يسعوا الى (الاصلاح) حيثما احتاج الأمر الى ذلك ••• » كان هذا الكلام منذ اكثر من سنتين وقد تفاقمت المشاكل خلال الفترة المذكورة بنسبة هندسية ، ولاشك في أن الأصداء المدوية التي نسمعها في تزايد القلق والأضطراب يصاحبها تراجع في الاقتصاد دون ان نسمع له دويا كالذي نسمعه في القلاقل • وأجد من الواجب هنا الاشارة الى شيء لايمكن تخطيهوهو رجوع الرئيس غورباتشوف الى احدى مقولات

لينين في عدم الخوف من لفظة (الأصلاح) فلا أملك نفسي من القول بأن أحد أسباب الأضطراب وتزايده هو التمسك بتراث الماضي في معالجة المشاكل مع علم الناس السوفيت وقناعتهم بأن هذا التراث هو نفسه أهم سبب للمصاعب المتراكمة التي يعانون منها • ان ترضية المتزمتين والناقمين على محاولات التصحيح والتجديد بأقوال من لينين وأفكار من ماركس فضلا عن كونها لاتجدي شيئا في تلافي غضبهم فأنها من جهة أخرى تعمل على شك الجماهير في صلاح الحلول التي تتعكز على نظرية شبعوا منها خلال عقود ثقيلة من سنوات الاشتراكية القهرية •

في السطور الأخيرة من صفحة ٥٧ وخلال النصف الأول من صفحة ٥٨ يورد الكتاب ذكر صلح بريست الذي فرض لينين عقده مع الألمان سنة ١٩١٨ بوجه معارضة من بعض أعضاء اللجنة المركزية مشيرا فيه الى رعاية لينين مصلحة الطبقة العاملة في توقيع المعاهدة رغم شروطها المذلة وكيف ان مسألة (المصالح) كانت دائما أمرا رئيسا لسياسات الحزب• ان رضوخ لينين لحكم الواقع الحرج الذي كانت تعيشه روسيا في سنة ١٩١٨ مثال لواقعية لينين على حسب ما يتراآى له من الحاح الظروف، ولكن في الموضوع جانبين مهمين جديرين بالملاحظة : الجانب الأول هو ما يبدو من معارضة بعض الاعضاء لقبول الاذلال الموجود في المعاهدة [ومن حججهم المذكورة في الكتاب ان العمال أيضا يرون وجوب رد الغزاة الألمان] أن الضرورة التي استجاب لينين لدواعيها لم تكن بالشدة التي لاتدع مجالا للخيار لاسيما أن الألمان لم يكونوا مستريحين في أعقاب اكثر من ثلاث سنين من حرب على جبهتين انهكتهم واستنفدت قواهم وبوجود قوة أمريكا الهائلة والمستريحة التي دخلت الحرب حديثا الى جانب الحلفاء ، اعداء الألمان • ولكن يبدو ان لينين اختار جانب أسلم

الخيارات في نظره بالنسبة لدولته مع ملاحظة ما في ترك الالمان أحرارا على الجبهة الشرقية من اعباء الحرب من زيادة قدرة لهم على انهاك دول الحلفاء وانهاك نفسها أيضا وفي ذلك فائدة لروسيا تأتي من ضعف أعدائها المباشرين [كالالمان] وغير المباشرين على الجبهة الغربية البعيدة باعتبارهم خصوما عقائديين في أقل تقدير • والجانب الثاني هو أن لينين استعصى عليه ادراك التضعضع الحقيقي لقوة ألمانيا الحربية التي مالبثت ان استسلمت وأقرت بالهزيمة في عام ١٩١٨ نفسها التي قبلت فيها روسيا مذلة صلح بريست ليتوفسك ، فلو كان على تقدير صحيح لقدرات المانيا اذن لتحامل على نفسه وتحمل حرجا لبضعة أشهر صونا للكرامة من جهة ودرء للخسارة الهائلة التي لحقت دولته بقبول احتلال الألمان لأرض روسية تضم خمسين مليونا من الأنفس بحسب ما هو وارد في الكتاب وهو رقم كان يعادل اكثر ثلث عدد سكان روسيا عهدئذ • صحيح ان لينين ألغى المعاهدة في ١٣ كانون أول – نوفمبر ١٩١٨ – ولكنه كان في هذا مدينا لانتصار الحلفاء وضد تقديراته المبنية على أساس تمكين المانيا من زيادة انهاك نفسها واعداء روسيا الآخرين بالتفرغ لهم في جبهة واحدة • ولنا أن نحكم من خلال منطق الأشياء ان الراحة التي كسبتها روسيا لفترة وجيزة بتوقيع المعاهدة المذلة أضاعت عليها سانحة المشاركة في التغلب على ألمانيا وجلوسها كدولة منتصرة الى مائدة الصلح الذي جاء بعد الحرب • ثم أنها بخروجها من الحرب فسحت المجال للذي جرى فيما بعد من تدخل الغرب في الحروب الداخلية ضد الثورة ومهدت الطريق لعزلة روسيا أعواما واستمرار التوتر في علاقاتها بالدنيا حتى قيام الحرب الثانية وهجوم ألمانيا على روسيا في حزيران ١٩٤١ • لقد حدث ما هو متوقع من استماتة لينين في الدفاع عن موقفه بنتائجه غير السارة كلها ولكن لاشك في انه كان سيدافع بقوة أكبر وبمزاج أروق عن الخيار الآخر وهو بقاء روسيا

شريكة كفاح الآخرين ضد دكتاتورية المانيا فيما لو بقيت روسيا محاربة وقطفت ثمار مشاركتها في النصر بلا انعزال وبلا توتر زائد في علاقاتها بالدنيا . عندئذ كان الكلام يجري في الحتمية التأريخية لرفض روسيا الصلح مع الألمان .

تلك تداعيات لامهرب منها أولا ولنا الحق فيها ثانيا وتلقي بعض الضوء على موضوع ما ثالثا وهي لم تخرج عن سياق البيريسترويكا رابعا وماذا نملك غير الرأي نقدمه في موائد رحلة الحياة لكل انسان !

وتمضي الصفحة ٥٩ في استعراض مكانة البيريسترويكا واستجابة العمال لها الى حد التنازل عن مزايا لايستحقونها حتى قالوا : « انه لشيء مشين [شائن م-م] ان نحصل على مالم نتكسبه » وينتهي كلامها في هذا المجال من المدح بان تقول : « ... ان الطبقة العاملة السوفيتية في مجموعها تؤيد تماما اعادة البناء ، وانها على استعداد لتطويرها ولأن تنجز في الممارسة دورها كطبقة طليعية للمجتمع الأشتراكي » . أما ان تكون الطبقة العاملة الروسية مشجعة وساندة للبيريسترويكا ومتنازلة عن منفعة لاتستحقها فذلك مشجع جدا على التفاؤل بما يحمله من بشارة التأييد وداع الى الأكبار لما في التنازل الطوعي عن المزايا من نبل وسمو ولكن ان تكون الطبقة العاملة الروسية طبقة طليعية للمجتمع الاشتراكي فان لي عليه ملحوظتين : أولاهما أن ذكر (الطبقة) في تكوين مجتمع (لاطبقي) شيء غير منسجم مع مدلول اللاطبقية أم ان واقع الحال يروي حكاية أخرى فيها ناس يعملون في المصنع والمنجم والحقل يختلفون عن ناس يعملون في الدوائر والجامعات وميادين الفن المختلفة عملا غير عضلي يفصلهم عن غيرهم من العاملين الكادحين ؟ والظاهر ان الابقاء على مصطلح (الطبقية) واضفاءه على (العاملين) يستهدف الأبقاء على ذريعة لمجاملة (الكادحين)

بالأجرة الجزافية المحجوبة من غير الكادحين • اني من دون أن أكـون قد نصبت نفسي صاحب الحق في اخراج الهويات للمجموعات البشريـة العاملة في شتى ميادين المجتمع السوفيتي كي أتذرع به لنقد ما أريد نقـده من تفاصيل التجربة الاشتراكية الماركسية ، فاني أجد المجـال واسعا في تطبيقات الاشتراكية المذكورة كي أتكلم فيها معترضا أحيانا ومحتجا أحيانـا أخرى ، فالتمايز بين الناس ملحوظ في المجتمع السوفيتي الى حد الوضوح الكامل ، وما كان لأحد ان يعترض على ذلك لولا ما يصاحبه من افتعـال التمايز ومن ايجاد الذرائع لتبريره فليس من داع لطمس لمعان الهندسـة والطبابة وسائر العلوم والفنون كي يلمع العمل العادي الذي لالمعان فيـه توصلا الى منحه أجرا فوق مايستحق وهو تحيز صريح ورشوة غير مؤولة يجامل بهما النظرية أولا ثم الطبقة العاملة ثانيا في كسف صارخ لمواطنـة سائر الناس من غير الماسكين بالمنجل والمطرقة •

والملحوظة الثانية هى اضفاء (الطليعية) على الطبقة العاملة وهى في واقع امرها لا تستطيع ان تكون طليعية ولا اظنها تفكر جديا في أن تكون طليعية على عهد فلق الذرة وريادة الفضاء الا على الورق وبأمر فوقى • انه من العجيب الغريب ان يكون الفلاح غير فاهم لسر الصنعة المصروفـة في مكينة الحراثة وان يكون جاهلا بتصليحها اذا تعطبت وان يحتـار في استخراج البنزين وتصفيته وأن يخلو ذهنه نهائيا من الطرق السحرية التي يتم بها تحسين البذور وحمايتها من (الزنجار) والآفات ثم يجد نفسه (طليعيا) يتقدم في مراتب المجتمع وقدراته الخالقة على العلمـاء والفنيين والمهرة السحرة الذين قاموا بـكل الصنعة والاستخراج والتحسين • • وبعد هذا المشوار المضنى في شغل مركز الصدارة الخلاقة لا يسمح لـه بامتلاك قطعة أرض ونصف مكينة حراثة وحصاد !! ما أشد نكاية النظريات

بالمصالح وبالحقائق وبالعقول ... أين نحن في هـذا المنظر المحير ! ام نحن في صالة تمثيل من نوع ما يسمى Pantomime . اذا جاز الغاء تمايز الناس بدرجة ذكائهم وفضل خبرتهم وتمام نبوغهم ورهافة عبقريتهم فمن اين ساغ تمييز الانسان المحروم من كل هذه المميزات ليوضع في الطليعة ؟ وما وجه الحكمة في تحريك الحسد والكراهية وتخريب الأيمان بالعدالة في نفوس عامة الناس الذين لا يشملهم هذا الوصف ؟ والفرق واسع جدا بين انصاف صنف الشغيلة والكادحين بالأجر المستحق والأحترام اللازم لأنسانيته وضمان حاضره ومستقبله وبين رفعه درجات فوق مقداره بلا استحقاق ! والذى نعرفه من ماجريات الامور في الدولة السوفيتية ان الذى ناله الكادح من هذه الألقاب والأوصاف هو زيادة الأجر اليومى فقط فلم يعط أى حق يتمتع به كادح مثله في سويسرة أو لوكسمبورغ من تشكيل نقابة حرة أو اعتراض على قرار يمس حياته وحياة الناس أو تدخل في السياسة الداخلية والخارجية او التظاهر للتعبير عن الذات .. انى اتمنى قرب اليوم الذى يتم الاستغناء فيه عن العمل العضلى الذى يقوم به الكادح لنرى كيف يكون التحايل على الواقع للاستمرار في رفع الشعارات القديمة في تمجيد الدور الطليعى للطبقة العاملة وقد انقضى زمانه ! ما ابعد روح العصر ومصالح الأنسان من حفر الاخاديد بين مكونات الجامعة الانسانية وتكريسها بالقوانين المفلسفة والآيديولوجيات المقدسة وما اشد النكاية المتولدة من تخصيص الفئة الواعية المدركة العالمة بالكسف والخسف والتثبيط ! قد يقال ان هذه الاخاديد أشد خطورة وأوضح وجودا في المجتمعات الرأسمالية منها في الاشتراكية السوفيتية وان تفاوت الناس في مدخولاتهم أفدح وأكثر فعالية في رفع المقامات والدرجات الاجتماعية فأقول ما من منصف يرحب بتفاوت غير مبرر وما من واع يتقاعس في الدعوة الى

تقريب المسافات بين الفئات والشرائح والأصناف والطبقات وقد تم قطع مديات هائلة في هذا الاتجاه حتى اوشكت الأحوال في بلدان متقدمة ان تطابق المجتمع النموذجي من زاوية زوال التفاوت في (القيمة الاجتماعية القانونية) للأفراد • أما التفاوت الموجود في واقع الحياة فبعضه من طبائع الاجتماع نفسه لايمكن ازالته بالرغبة المجردة فلكي يتساوى رئيس الوزراء مع الفراش في باب مكتبه لابد من قطع أشواط لاترى نهايتها نحو التمكن من رفع هذا النوع من التفاوت بانتفاء الحاجة الى رئيس وزراء يقوم الفراش أو الحاجب ببابه • ولا حكمة أو مصلحة في افتعال المساواة التي لا أساس لها فسترتد بالضرر على المجتمع الذي افتعلها • ان الخطورة في وجود قانون يصرح بهذا التفاوت كما كان موجودا في الماضي غير البعيد ولم يزل موجودا في زوايا أو بلدان لاتقع تحت النور أما بشكل معلن أو مستور • ليس بالامكان حذف دور العالم ولا بالامكان تجريده من مختبره ووسائل تحقيقه ومكان مريح يساعده على التركيز ولا مهرب من توفير مقومات عمله كي يكون فعالا بعلمه وكشفه واختراعه • ولم يزل حذف دور العامل والفلاح متعذرا فلابد من وجودهما ولكن لايوجد بلد متحضر يفرض على الشخص ان يكون كادحا ولا جرى تنقيص حقوق الشخص أو النيل من شخصيته بسبب انه كادح ، ومن الأمور المعروفة بمقياس واسع ان عمال البلدان البرجوازية المتقدمة يتمتعون بحقوق وحصانات تبلغ حد الاسراف في أحوال كثيرة حتى انهم يستطيعون ان يخربوا اقتصاد بلدانهم بالأضراب والاعتصام ويستوفوا مع ذلك كامل أو أغلب أجورهم •

في ثنايا الكتابة بالصفحة ٥٨ و ٥٩ ذكر لنظام (تفتيش الجودة الحكومي) ولها وصف في الهامش (١٥) أسفل الصفحة ٥٨ على انه :

نظام للرقابة على جودة المنتجات مستقل عن ادارة المؤسسات وأدخل هذا النظام في أول يناير سنة ١٩٨٧ .. ولست أدري كم أفاد هذا النظام خلال السنين الثلاث المنقضية ولكني ، كعهدي وعهد الناس باللجان المماثلة التي تفرض من خارج بنية الاقتصاد وبعيدا من تجربة البضاعة في سوق العرض والطلب وفي موقف المشترين منها ، لست مرتاحا الى تدابير من هذا النمط الا عند فقدان أية وسيلة أخرى يمكن بها معرفة جودة ورداءة المنتجات فاللجان الحكومية في معتاد الأحوال والأمور تتصف بالبطأ النسبي في العمل الرسمي اذا قيس الى العمل الفردي أو العمل الحر عموما مضافا اليه قلة الخبرة من جهة وقلة الحماس من الجهة الأخرى بسبب فقدان الارتباط المباشر بين ممارسة أعضاء اللجان وبين طبيعة السلعة التي تختبر ، وعدم تلاحم مصالحهم مع مصالح عامة المشترين كما تتلاحم مصلحة المنتج الحر بالسوق فهو يفلس اذا فسدت سلعته . وفوق هذا وذاك فان لجان الرقابة على جودة المنتجات تقوم بعملها بعد ان تكون السلعة قد تم صنعها وكلفت ماكلفت من جهد ومال وغاية ما يكون منها أنها تقول كلمتها في نوعية السلعة أما بخطأ أو بصواب ثم لاتستطيع قطعا تعويض الدولة والناس عن الرداءة أو عدم صلاح السلعة بأي وجه من الوجوه فهي غير خبيرة كي ترشد العمال وغيرهم الى طرق الانتاج في المصنع ، وغير متخصصة لعمل واحد ومصنع واحد كي تديم مراقبتها للمصنوعات على مدارالسنة. ولست استطيع أن أتصور مقدارفداحةالعملية واعبائها واستعصائها اذا تمثلت أنهوضعتلجانفيطول دنيا السوفيتوعرضها وفي كل سوح العمل من زراعة وصناعة وخدمات بريدية ومواصلاتيه وفندقاتية وتنظيماتية الى آخر « .. تيات » بدء برعي المعيز في القرغيز وانتهاء الى طيارات الميج والمركبات الفضائية .. لقد اطلعنا في بعض الافلام السوفيتية على فساد الأحوال في السوق السوداء التي تتعامل فئات كثيرة

من الرسميين في أوحالها وللرئيس غورباتشوف نفسه كلام صريح في ان بعض الموظفين والحزبيين الكبار أنفسهم منخرطون في أعمال مشبوهة تبلغ حد القتل فما عسى يكون مقام اللجان المذكورة في هذا البحر من الألتواء فهو في وسعة وتعقيد انتشار الأوعية الدموية والجهاز اللمفاوي في الجسم الحي ويسود كل مراحل انتاج السلعة ، لاسيما في الزراعة ، من وقت زرع الشتلة حتى بلوغ ثمرها معارض العافية والهناء في سوق البيع والشراء .. ان العملية في مجموعها هائلة وحاطمة وفاشلة ومضيعة للجهد والمال ولا تعدو كونها في المآل عقدة جديدة تضاف الى العقد المراد حلها. لابد للانتاج أن يكون بذاته رقيبا على نفسه وكذلك الخدمات وكل مرافق المجتمع ولايكون ذلك ممكنا الا بتحميل المنتج ومقدم الخدمة كلفة عمله ونتيجة انجازه أي بتمليكه وسيلة انتاجه ومورد رزقه : انها الطريقة الوحيدة المكفولة النجاح والمرفوضة في مناهج الاشتراكية لا لشيء الا لأن ماركس قال ذلك وان لينين أكده وأن دراويش متقوقعة من الحزبيين والبيروقراطيين يعجبهم قولبة الانسان على نموذج يفيد تأريخ النضال الطبقي . على أي حال لن تنتظر دولة السوفيت صدور فتوى مني كي تتخلى عن الشعارات التأريخية ولا تنتظر هذه الشعارات تجاريب أخرى ليثبت كونها غير ذات جدوى بل غير ذات موضوع أصلا . اكتب هذا في يوم ١٩٩٠/١/١٦ وقد ترامت الى الدنيا أنباء الاشتباكات الدموية بين الآذريين والأرمن وسقوط عشرات القتلى وتفاقم المشكلة الى حد تدخل الجيش الروسي نفسه ليظهر بجلاء افلاس الحلول المنفذة لحل المشاكل القومية والدينية على أساس اقتصادي طبقي فأقول مع أحر تمنياتي واخلص دعواتي لزوال الغمة بسلام ان شأن نظام الرقابة على جودة المنتجات لن يكون أحسن من الحل التمويهي لمشكلة ناغورنو قره باغ وكل المشاكل الأخرى التي لم يكن لها حل حقيقي الا ماكان منه بالاجبار والقهر . وعلى

ما هو مكتوب في الهامش (١٥) المذكور فان التجربة قد طبقت حتى تأريخ كتابة الهامش في وسط سنة ١٩٨٨ في ١٥٠٠ مؤسسة صناعية ولا نعلم بعد سنة ونصف سنة من تطبيقها مدى نجاحها وفشلها في واقع الحال فهي في واقع الكلام الرسمي ناجحة في أغلب الأحتمال وفي واقع تقديراتي لا أظن أن النجاح يصاحبها فعسى ان تخيب ظنوني وتحدث المعجزة !

بعد كلام قاطع في أواسط الصفحة ٥٩ ان البيريسترويكا ثورة وانه لابد من مواصلة العمل حتى النهاية وتحقيق التقدم كل يوم وان السياسه أهم شيء في أية عملية ثورية ومنها البيريسترويكا فنوليها الأولوية باشاعة الديمقراطية الحقيقية الواسعة والنضال الحازم ضد الروتين وانتهاك القانون وبالمشاركة الجماهيرية النشطة في ادارة شئون البلاد وان ذلك كله يرتبط مباشرة بالمسألة الاساسية في أي ثورة وهي مسألة السلطة ، بعد هذا كله وفي رأس سطر جديد بنهاية الصفحة يقول : ولن نغير السلطة السوفيتية أو نتخلى عن مبادئها الأساسية ولكننا نعترف بالحاجة الى تغييرات تدعم الاشتراكية وذات مغزى من الناحية السياسية فلنا الحق في وصف خططنا من أجل اشاعة الديمقراطية الواسعة النطاق بانها برنامج للتغييرات في نظامنا السياسي •

ليس سهلا علي استيعاب الطريقة التي يتم بها الجمع بين عدم تغيير السلطة السوفيتية وبين برنامج مبني على الديمقراطية الواسعة النطاق لاجراء تغييرات في النظام السياسي وهل هناك فرق بين السلطة السوفيتية وبين النظام السياسي ؟ وهل السلطة السوفيتية هي التي قررت تغيير النظام السياسي ؟ وكيف يحصل التغيير في النظام اذا لم يمس السلطة السوفيتية أو الحزبية ؟ وماذا تعني الديمقراطية الواسعة اذا كان باب تغيير السلطة مسدودا وتعدد الخيارات محظورا والتملك الفردي محرما ؟ مهما حاولت

فهم ملتقى هذه الأهداف المتباعدة لم اخرج من المحاولة بشيء مقنع الا أن يكون ذكرها في الكتاب اعلانا عن منح أصحاب البيريسترويكا لأنفسهم صلاحية تقرير مايرونه ضروريا أو صحيحا وهو على قدر تعلق الأمر باسكات المتقوقعين تدبير في منتهى الوجاهة ، وبمقدار مايكون منه مقصودا لتخفيف غلواء أصحاب المطالبة بالتغيير شيء ضروري أيضا بشرط الا يجر الى شكم الانطلاقة التي نجمت من البيريسترويكا فمادام الرئيس غورباتشوف والمؤمنون معه بضرورة التغيير مصرين عليه فان التأييد الجماهيرى لهم هو الضمان الأقوى ، والأوحد أيضا ، لتخطي العقبات وتذليل المتعسرات فالمهمة صعبة طويلة النفس باهظة التبعات متعددة الأوجه والأحتمالات . وتبقى ملحوظاتي حيث هي ، بصمات على الورق...

في أواسط الصفحة ٦٠ ، عقب أسطر من مستلزمات نجاح البيريسترويكا تأتي العبارة الآتية مستخلصة لمعنى الأسطر التي سبقتها فتقول : « لقد برز الى المقدمة من جديد المعنى الأصلي لمفهوم (الاشتراكية) باعتبارها ، في المقام الاول ، حركة سياسية وآيديولوجية للجماهير ، حركة قاعدية ، تكمن قوتها أساسا في وعي ونشاط الانسان » .

هاهنا ملحوظة هامة تسبق غيرها وهي ان الاشتراكية التي وصفها الرئيس غورباتشوف بأنها (سياسية وآيديولوجية) هي الاشتراكية الماركسية المطبقة في بلاد السوفيت وهي حقا كما قال (سياسة وآيديولوجيا) أولا ورابعا وسابعا ثم تأتي التطبيقات على حسب ما تطلبه الأفكار والمعتقدات المنطبعة في أذهان رواد الثورة بصرف النظر عن متطلبات الواقع وحقائق الاقتصاد وحاجات الناس فعلى هذه الأمور ان تكيف نفسها وفق تطلعات السياسة والآيديولوجيا وليس وفق طبيعتها فاذا لم تفعل ذلك وجب علاجها بالترياق السياسي وهو النصح والارشاد في المقام الرابع والقهر

والارهاب في الدرجة الأولى والثانية والثالثة ... أما الاشتراكية الحقيقية النابعة من التطور الصحي السليم استجابة لمنطق التغير والتطور غير المفتعل فهي أبعد ماتكون عن الافكار المطلقة والسياسات القائمة بذاتها كقيام العبادات منقطعة عن مستلزمات تربية الأسماك وصنع الدبس وتحسين طرق المواصلات ، ومن هذه الحقيقة البادية للعيان يمكن استشفاف مايلي:

١ – ينبع من الصفة التجريدية للاشتراكية الماركسية اللينينية كونها سهلة التطبيق في أول أمرها كسهولة فرض اليوغا وتعداد نجوم السماء لأنها لاتتطلب قاعدة اقتصادية متقدمة وشروطا حضارية متوائمة معها لاتتيسر الا بعد تقدم شامل وراسخ في كل الوجوه . وينبع منها أيضا ظهور كلالها وتعرقلها سريعا كما يظهر تعب الناس من اليوغا وتعداد النجوم لانها كلها مقحمة على الأنسان . ولما كانت اليوغا وتعداد النجوم تمارس في خفاء أمكن التقاعس فيهما شأنهما شأن الاشتراكية الآيديولوجية التي تستطيع أن تتستر على فشلها باطلاق الشعارات وخلق المعاذير وبالخدع الحسابية والأرقام الخيالية والادعاآت المجردة من الدليل فيظهر أبطال العمل الكاذبون ومخترعو الاساليب المداهنون المضللون بلا عمل ولا اسلوب ولا يحزنون ، يحميهم ويجاملهم أبطال مثلهم في القيادة بنوا عروشهم بالأخيلة الجوفاء والتمويهات الرعناء وكأن ليس في الامكان أحسن مما كان .

٢ – وينبع من الصفة التجريدية للاشتراكية السوفيتية [الماركسيه اللينينية] هالة القدسية والديمومة : فلكونها وليدة ثورة تقدست منذ يومها الأول كانت هي أيضا مقدسة منذ لحظة تطبيقها ، وكلما تعرقلت بسبب عجزها الذاتي أمكن بل وجب رد ذلك الى مناهضة الامبريالية والقوى المعرقلة لمسيرتها . ولانها مرتبطة بالسياسة والسياسة مستمرة ليست لها

نهاية فلا تبدو للاشتراكية التجريدية ايضا نهاية فقد بدأت بالسياسة والايديولوجيا وتنتهي أيضا بالسياسة والايديولوجيا أي أنها ثلاثتها تموت معا وتعيش معا .. ولحد يومنا الراهن وجدنا دولا في أوروبا الشرقية تتسلخ من اشتراكيتها وايديولوجيتها والسياسات المبنية عليها دفعة واحدة، وبعضها ماتزال في تلوياتها لنزع جلدتها كما تفعل الحية في الربيع مع بدأ نموها الجديد ..

٣ – ومن باب مفهوم المخالفة نجد ان الاشتراكية المتولدة من التطور السليم والضرورات المستجدة خالية من الشعارات والهتافات والآيديولوجيات والقدسيات وما شاكلها من هراآت فهي تنشأ في عفويه نشوء الجوع عند الظهر وتمارس بلا طقوس كما يمارس الغداء والعشاء، وتلد قوانينها كما تلد الحامل وليدها وتموت قوانينها بالتقادم كما تموت الأم ووليدها في أوان موتهما . فلا غرابة في نشوئها وبقائها وزوالها ولابطولة في ممارستها ولا أوسمة تعلق على الصدور في مواسم مهرجاناتها وكرنفالاتها .

ومن مجمل ماتقدم يمكن الاستدلال على أن الوصول الى الشيوعية الحقيقية مستحيل في الاشتراكية اللينينية الماركسية الا بالادعاء ومتصور في الاشتراكية (البرجوازية !) في الواقع والادعاء معا . اذكر اني كتبت في مجلة غرفة تجارة بغداد سنة ١٩٦٠ مقالات سياسية اقتصادية قلت في احداها كلاما عن (رأس المال) افند به المقولة المشهورة ان رأس المال جبان موضحا ان رأس المال أشد الاشياء جرأة فيما هو منطقي وسليم فهو ليس جبانا ولكنه ليس طائشا وكان رأس المال هو الذي يطوى طريق الحرير بين الصين وأوروبا دون سائر أنشطة البشر حتى انه جاوز في مداه فتوح الفاتحين فبلغ مديات عجز عنها هانيبال والاسكندر المكدوني

ونابليون والطيور المهاجرة أيضا .. ورأس المال في يومنا الراهن هو نفسه بطل طريق الحرير وسيلج الشيوعية بلا ضجيج اذا اقتضت المصلحة أو ضرورة الحياة ذلك ولكن لايقدم في ذلك تضحيات أو يقوم فيه بطقوس العبادة في ظل شعارات الشقاوة أو التباطل .

في السطور التسعة الأخيرة بالصفحة ٦٠ كلام جميل في عبارات قصيرة حاسمة متتالية يصف البيريسترويكا من مثل :

الثورة لايضارعها شيء ونشاطنا اليومي ينبغي الا يضارعه شيء كالثورة .

البيريسترويكا تتطلب زعماء حزبيين قريبين للغاية من مثل لينين .

الوصولية والاستعلاء وتحكم الموظفين لاتتفق مع هذه المثل .

تبجل الشجاعة والمستويات الآيديولوجية العالية والنقاء المعنوي ...

كل هذا جميل ونبيل ولكن كيف يمكن ان يكون دستور عمل يومى اعتيادى لا يعتريه الخور والكلال والملال لانه كله مستند الى استمرار تدفق الحماس الداخلى النابع من الشعور الذاتى غير المرتبط ارتباط تلازم بلقمة العيش كما ترتبط لقمة العيش في العمل الفردى بالنشاط الفردى ارتباط تلازم دونما حاجة الى استظهار يومى للقيم والمثل والغيرية وبصرف النظر عما يكون من شأن الأفراد الآخرين في هذه الأوصاف لان مغبة عملهم لا تتعدى الى الآخرين الا في مقدار غير ملحوظ بقياسها الى الحماس الفردى في العمل الجماعى الاشتراكى الذى لا يجدى شيئا اذا فتر حماس الآخرين ، هذا بالاضافة الى أن حماس الأفراد العاملين كلهم في المشروع الواحد الاشتراكى لا يفيد بحد ذاته اذا تقاعس الاداريون والموجهون القياديون في المستويات العليا

فالاشتراكية نسيج متداخل متدرج تختلط خيوطها وتتعاقد بعضها مع بعض ويتوقف بعضها على بعض في حبكة ضيقة خليقة بالتشكيلات الرسمية وليس توجد سوق حرة أو مؤسسات اهلية يمكن الالتجاء اليها اذا عجزت او تكاسلت أو تمردت أو تعالت المقامات العليا في البنية الاشتراكية وتبقى مصيبة المصائب في الهيمنة الحزبية والمراجع الآيديولوجية بغياب شبه كلى لجهة قضائية يمكن الاحتكام اليها وقدرة شبه معدومة للاتصال المباشر مع الخارج (من باب التعويض عن الداخل) وهذا كله لا يتعدى جزء صغيرا من المجموع الكلي للعراقيل والعثرات والاختناقات وشلل الارادات والنشاطات في الانظمة ذات البنية الهرمية المتناقصة قدرة وفاعلية وارادة كلما نزلت الى أدنى القاعدة • ولئن يكن افتراض الارادة الخيرة النيرة في القيادات والتوجيهات تعلقا باحسن الاحتمالات التى لا تقع الا في أندر الاحوال بصورة عفوية وتطوعية فانا نفترض وجودها دفعا للمناقشة فماذا تفيد الارادة الخيرة اذا افتقدت الخبرة ؟ وم ن اين تأتى الخبرة من مليون جهة لتجتمع في قيادة واحدة عليا ؟ ان رب العالمين وحده موصوف بالعلم الكلى والنزاهة المطلقة فاذا افترضناهما في القيادة الاشتراكية فانها ستبقى بحاجة الى قدرة كلية وآنية التأثير والنفاذ لتعمل عملها خلال دقائق في اعوجاج يحصل بفلاديفوستوك أو في دائرة القطب ••• مستحيلات متلاحقة بعضها آخذ بخناق بعض وكلها معصرة تستقطر كل طراوة موجودة في الأوردة والشرايين وسائر العروق واللحوم بلا داع ولا ضرورة وبتضاد مطلق مع مصلحة البشر حتى يوم ترتقى به الحضارة الى مستويات تستغنى فيها الارادات والخيارات والنشاطات عن وعظ الواعظ وأمر القوانين وحفز المصلحة الشخصية للاقدام على خير التصرفات واكثرها فعالية في تحقيق الرفاه ، وعندئذ تنتفى الحاجة قبل كل شيء الى وجود نظام اشتراكى

ماركسى لينينى يقيم الاسيجة ويبنى الأسوار ويرسم علامات الطريق لأرشاد الضالين وحفز الكسالى • ان المسألة مهما قلبت على وجوهها المختلفة لا تخرج عن ضرورة كف الهيمنة الحزبية والايديولوجية والاهداف المرسومة والأقلاع عن وضع بديل بشرى منضبط متوفز متوجس عن رب العالمين واحلال الرقباء والوسطاء والمفتشين محل الملائكة المقربين وطرد ابليس (الاقتصاد الحر) عن جنة الأصفياء الأتقياء من العمال والفلاحين والمثقفين في اقتصاد ماركس ولينين •

بعد هذا المشوار الطويل المضنى الذى اختصرته ، ويااللغرابة ، بترك رؤوس اقلام كثيرة دون تعليق وحبس آراء وملاحظات ونقدات غير معدودة في طوايا الضمير نصل الى عنوان جديد في اول الصفحة ٦١ نصه كما يلى :

« ثورة من أعلى »

الحزب والبيريسترويكا

في الصفحات الخمس التى يستغرقها شرح هذا العنوان في كتاب الرئيس غورباتشوف وردت رؤوس أقلام كثيرة جدا بعضها من ربع سطر وبعضها بضعة أسطر وقد تكون كلمة واحدة بذاتها محتاجة الى ما يقتضيه (رأس قلم) مستقل من تعليق • وواضح من معانى الجمل ان الكلام دائر في وقت بدت فيه بوادر الصعوبات ولم تستفحل بعد • وأغلب ظني ان بقية باقية من حسن الظن بالأشتراكية العلمية وألمعية لينين وعبقرية ماركس يسرت على الرئيس غورباتشوف استبعاد الفراق بين الناس وبين الاشتراكية وجميع تطبيقاتها ، وتفاقم الخلاف على (العرق)

على نحو يزرى الزراية كلها بالحلول الطبقية وترياقات فتوح (التناقض) وأن ينتبه الحنين الى الاله المحظور والمعابد المغلقة والطقوس اللامادية حتى يصل ببساطة الى حظر الحزب والغاء الشيوعية ومسح تراث السبعين سنة الماضية ، لاسيما في جمهوريات الشرق والجنوب والبلطيق ، لولا شبح روسيا الهائلة كدولة عظمى ذات ادعاء بشرعية قيمومتها وولايتها القانونية عليها • ان اجماع الشعوب على كراهية النظام الذى فرض عليها بزعم انه حتمية التأريخ وضرورة النمو وسبيل التكامل مضافا اليه تصدى زعامته العليا ومصدره الأول وباعثه الى الحياة ، روسيا البلشفية ، للأعلان عن وجوب انتشاله من كبوته وعلاجه من علته دليل قاطع على ان ما أصابه ليس وعكة طارئة وخورا عابرا سيبرأ منهما النظام بوسائل دفاعه الذاتية مثل الجسم الحي الذى ينشط الى محاربة الجرثوم المتسلل اليه في غفلة منه فقد ندر في التأريخ كله أن تهاوت عقيدة أو انهار حائط من ذات نفسه بلا هادم من خارجه في زمان قياسى في القصر كالذى شهدناه من تخلخل (الأشتراكية العلمية) وميلها الى الاختفاء حتى كأنها هى العلة الطارئة والجرثوم الوافد رغم انها هى الحاكمة الآمرة الناهية في البلاد التي تؤذن فيها بالتلاشي فالمانوية وقبلها المزدكية وبعدها النازية ما تطوعت أو تبرعت بالزوال • بل انا شهدنا النازية تقاوم ضد المستحيلات التي أحاطتها في تماسك حتى انهارت بالأحتلال الأجنبى ولم يتعرض واحد من قادتها على يد الشعب الألمانى الى ما تعرض له غالبية زعماء الاشتراكية العلمية من سقوط جماهيرى بلغ بعضه حد الاعدام • انهم يبدون اليوم في صورة موسولينى مع فارق واحد هو ان زخم الجيش الامريكى والبريطانى في ايطاليا سنة ١٩٤٣ وما بعدها ساعد انبعاث الجماهير الحاقدة على الفاشية على حين تقوم شعوب أوروبا الشرقية بتعرية النظام المفروض عليها ونبذ حكامها على مرأى من وجود جيش روسى قوى في

بلادها لا يسره ما يرى ولكنه ساكت بالحظر الواقع عليه من البيريسترويكا ضد التدخل • وليس ما يجرى في الجمهوريات السوفيتية نفسها ، باستثناء روسيا نفسها والاوكريين ، أقل ظهورا ودلالة مما جرى ويجرى في اوروبا الشرقية فقد كفى اننا سمعنا منذ أيام بدخول منغوليا الشعبية حلقة المبارزة ضد الشعبية مطالبة بتركها حرة تعمل ماتشاء •• والذى أبهجنى حقا ، انا المنزوى في ركن بيتى متفرجا باحساس عميق على مآسى الحياة من حولى وعلى البعد ، تصريح الرئيس غورباتشوف قبل يومين (١٩/٢٠-١-١٩٩٠) في اعقاب تفاقم الوضع بين الاذريين والارمن ، بوجوب تغيير علاقات روسيا السوفيتية بالدول السوفيتية عن طريق زيادة حقها في تقرير ما تراه صالحا لها وليس في زيادة احكام القبضة المركزية عليها • ومن الامور ذات الدلالة العميقة ان عداء الآذريين المسلمين للأرمن المسيحيين صاحبه مطالبتهم برفع الحدود والقيود بينهم وبين الاذريين المحكومين بالفرس تمهيدا للوحدة بينهما في حين أن الالمان العايشين في سويسرة لم يميلوا الى التوحد مع المانيا الهتلرية حتى في اوج مجدها وهى تمد سلطانها على من حولها في شبه سرعة اسطورية فالدافع في الحالتين ، مع ملاحظة الفارق الحضارى بين سويسرة واذربيجان السوفيتية ، هو نوع الشعور السائد في الشعبين نحو الأحوال التى تحكمهما وقد كتبت من زمان غير قريب ان الأنسان يرتد عن الشىء الذى يكرهه الى نقيضه ولا يحيد عنه الى جانب فهو يهرب من النار الى الماء ويتقهقر من حافة السطح ليقع الى الهاوية من حافته الأخرى ويعادى صديقه بالانضمام الى عدوه وهكذا •• والذى هو من طبائع النفوس أو من طبائع الاشياء يعلن عن ذاته على قدر الامكان مهما جرى التمويه في ستره أو تأويله أو قلب معناه ولا يختفى بالكمال الا بالقهر أو بطول التدريب والتلقين والتعويد •

فيما يخص مناقشة الرئيس غورباتشوف فكرة « الثورة من أعلى » وبيان رأيه في أن البيريسترويكا ثورة من القواعد وان تكن بدايتها انبعثت من القيادة ويورد فيها أدلة وكلاما منطقيا ، فالذى أراه بحياد تام هو ان « الثورة من أعلى » ليست شيئا كريها يستدعى التبرؤ منه لمجرد أنه لم ينهض من الجماهير ، فاذا كان في الامكان أن تقوم ثورة من أعلى خالية من العنف والدم والتخريب والتطرف لتعديل المعوج وازالة الفاسد وايصال الحق الى صاحبه بواسطة الاجهزة الرسمية الشرعية التى تقوم بواجباتها في الحياة اليومية دون ضجيج أو هتاف أو مظاهرة ، واذا كان في الامكان دوام نتائجها الباهرة هذه بوجه نوايا السوء وتبييت المؤامرة وتدبير الدمار والفوضى فأن قيامها خير وأولى مئة مرة وألف مرة من الثورة الجماهيرية المصحوبة غالبا بالمكروهات والمنكرات والفظاعات التي تأنف منها الانسانية وتفتقر دائما الى الخبرة العملية في ادامة المصالح بل انها لاتدرك المصلحة وغير المصلحة بوضوح وخليقة أن تمشى وراء أشد الشعارات تطرفا وتخريبا بسبب أنها ، أو غالبية الناس القائمين بها ، تنجذب الى بريق الأشياء بأكثر من انجذابها الى مكنونها وتقدس البهلوانيات والدونكيشوتيات والمواقف المسرحية الفارغة والمدوية كالطبل بأكثر مما تمنح سمعها للكلام العاقل والتدبير الحكيم والكف عن العبث . ونرى بأم عيننا كيف ان البيريسترويكا نفسها ، بأى وصف كانت ، تعانى من الجماهير بأكثر مما تعانى من المتزمتين ، فعلى حين وجود سلطة متفتحة تريد الخير وتقاوم الشر تنطلق الجماهير في مسالك ترتد على البيريسترويكا وعلى الجماهير نفسها بالأذى : صحيح ان رد فعلها ضد الكبت يدفعها الى ما لا ينفع ولا يسر ولكن صحيح أيضا ان تصرفها ليس هو الخيار الوحيد وفي الأمكان بشيء من ضبط النفس وترجيح المصلحة الممكنة على المخاطرة أن تسير سيرا وسطا يجمع بين تمكين

القائمين بالبيريسترويكا من تطبيق منهجهم المعلن وبين التنبه الى ما قد يحصل من احتمال الجنوح أو التراخي • لقد كتبت سنة ١٩٧٧ قولا نشر في سنة ١٩٨٤ خلال مناقشتي لبعض حيثيات الثورة الفرنسية وتثمين آراء بعض كبار الاشتراكيين عنها منها قول انجلز (في كتابه ضد دوهرنج) ان الثورة الفرنسية نقلت حق ليلة الدخلة من الاقطاعي الى البرجوازي ومنها قول الاشتراكي الايطالي لابريولا انها فشلت في تحقيق شعاراتها البراقة بسبب الجهل ويرده بليخانوف بنقيض ذلك من ان ثورة فرنسا كانت عالمة لمقتضيات عصرها وحققت اهدافها ، كتبت أنا ان قلة من الناس كانوا مدركين لمقتضيات العصر ولمصلحة الجماهير ولكنهم كانوا عاجزين عن التأثير في الاحداث وان قلة من المحيطين بنابوليون وهتلر أدركوا فساد رأيهما في غزو روسيا وقد نصحوهما ولكنهما لم يلتفتا الى أحد •• وقلت أيضا ان اى عصر من العصور التي مرت بها البشرية ، كان عاجزا في ادراكه لحقيقة مشاكله ومحتاجا في حلها الى ادراك عصر لاحق • ويمكن ملاحظة ذلك حتى في الكشوف العلمية والأختراعات فأن افذاذا من البشر يخترقون ببصيرتهم حجب الحاضر لاستشفاف الامكانات التي ستتوفر حتما في المستقبل فيوفرونها هم دون انتظار صعود القافلة الأنسانية كلها الى المستويات العليا • انا اعلم بالبداهة ان (النسبية) لم تكن قابلة للانكشاف في القرن السابع عشر ولكن اعلم أيضا ان وقدة ذهن آنيشتاين سبقت امكانات القرن العشرين في أوائله وكانت امكانات العصر متوفرة له ولغيره فليس من باب الصدفة ولا مما يبخس المجتمع الانساني حقه ان يكون أحد أبنائه قد خرق بذهنه النفاذ حجب الخفاء عن أكبر سر فيزيائي • ان مصاعب البيريسترويكا نفسها واضحة للنظر الطليق وان مضرة المغالاة الجماهيرية في الاستعجال والمطالبة هي أيضا غير خفية على العقل المتفتح فلو عقلت العامة كما تعقل هؤلاء الممتازون بالادراك السليم

لوفرت على نفسها متاعب ستصادفها حتما في مسارهـــا المستقبلى فهنـاك انظار ملايين الناس لا ترى موضع خطاها وهناك قلة تبصر مـآل الأمـور لما بعد السنة والسنتين • وليس حتما ان يتساوى أولئك وهؤلاء في درجة الكلال الذهني أو فضلة الادراك العقلي فالجماهير متفاوتة بأفرادها وكذلك القلة المبصرة • وانى اسمح لنفسى من زيادة حرصى ولهفتى على سلامة البيريسترويكا بالقول أن تشدد المتفتحين في صفوف اهل اعادة البناء مـع الجماهير هو قصور في رؤية المستقبل يعادل قصورهم فيما لو تساهلوا مع المتحجرين واعداء المسيرة • بل ان قصور الرؤية هذا يشمل حتى دول الغرب والولايات المتحدة بالدرجة الأولى اذا تعمـــدوا معاكسة الرئيس غورباتشوف او بخلوا بتيسير المهمة عليه فالمصالح البشرية الموضوعـــة في الميزان التى ادركها غورباتشوف وحمله واصحابه على أنهاء أشق مهمـة حضارية تأريخية واجهها انسان في التأريخ ، هذه المصالح ليست لها هوية شرقية أو غربية او نفطية او عرقية او طبقية فهى مصير الأنسان ووجوده وبقاؤه فقـــد يصبح كالداينصور والماموث مـــن المنقرضات • وعلى غورباتشوف نفسه بادراكه العميق والشامل بانوراما (مآل البشرية) ان يتخطى نهائيا عراقيل طبقيـــة وآيديولوجية واعتبارات المجاملة للموتى وللعقيدة : ان اخفاقك يا غورباتشوف بسبب من اضاعة ثقـة الناس فيك لتمسكك بصيغ ومقولات ومناهج وعقائد لم تعد تستقطب واحدا من عشرة من الناس في شعبك هو تفريط في أمانة في أقصى أقاصى القداسة وأعلى أعالى الخطورة لم يتهيأ لاحد قبلك من السياسيين حيازة شرفها وكرامتها ، ولا أظن من السهل على أحد حتى غورباتشوف نفسه استيعاب هـــذه الحقيقة الهائلة وادراك ابعادها ومآتيها : ومن طبائع البشر ان يقل تثمينـه وتقديره لشيء او نعمة في متناول يده وطوع رغبته ويشتد ميله الى البعيـد المستعصى ومن مقولات كريشنا مينون ، الوزير الهندى الذائع الصيت انه

حين كان طفلا يشتهى الملبس الموضوع في رفوف عالية فلا تصله يده فلما طالت قامته وتمكن من الوصول اليه لم يعد يشتهيه • ان الرئيس غورباتشوف قال في خطورة الوضع ولزوم السلام قولا بل اقوالا حاسمة في منتهى النبل والشهامة فمن مقتضى تلك الأقوال ومستلزماتها أن يخضع التراث الثورى والايديولوجى والفنى والعلمى لمتطلبات هذا الهدف الخطير الذى لا خطورة بعده ولا قيمة للتراث كله ولا للعلم كله ولا للفن كله اذا أخفق في دعم سلامة الانسان وضمان بقائه فكيف بوقوفه حجر عثرة أمام كفالات هذه السلامة • ان هذا الكلام اذ يتوجه الى الرئيس غورباتشوف من كاتب مثلى لا يملك غير سن قلمه هو افراغ الذمة من أثقل ديونها الأدبية فما عسى أقول غير الذي قلته في أخطر مخاطر الاضمحلال التى تتربص بنا • ان الرئيس غورباتشوف يحمل اليوم على عاتقه مصيرنا جميعا ومصيرهم كله وما خصصته بالكلام والخطاب الا لأنه هو المبادر الى جمع واجبين في مسئوليته كلاهما مترابطان متلازمان : واجب انتشال ما تهاوى من مصالح بلده وواجب انقاذ البشرية من الكارثة النووية فلا يمكنه اقامة الأحوال ضمن حدود دولته الا اذا اطمأن الى سلامة الأمان في الدنيا ودوام التعايش بلا تهديد ولا يمكنه النهوض بواجب قهر الكارثة النووية الا اذا نجح في مساعيه العلاجية لأدواء مجتمعه • ولم اتوجه بكلامى الى العملاق الآخر U. S. A. لعدم وجود معادل للبيريسترويكا عندهم يتصل صراحة بمصالح الدنيا عموما ويضع حلولا لمشاكل العصر توصلا الى سلام عادل ودائم حتى وان يكن من باب التظاهر ، بالاضافة الى أنه ليست أمريكا رمزا عندى أو عند أحد من الناس والجماعات ولا أقامت نفسها مقام مسيح القرن بشارات فلسفية ايديولوجية نحو طريق الخلاص كما ادعت الفلسفة اللينينية الماركسية في خطابها لعموم الشغيلة والشعوب بمنهاجها المعلن وقد هويت اليها قلوب

مئات الملايين من غمار الناس بينهم اعداد غير قليلة من أهل بلدى وجيرتى وعشيرتى اندثر منهم جيلان بالتمام في قبض الريح وحصاد الوهم وبناء الخيال ، على حين لا أجد واحدا أحدا من كل الشعب الذى أنتمى اليه ابدى اى عطف مجرد من العمل تجاه امريكا خلال ستين سنة اذكر احداثها • ولئن كان كلامى لا يصل اسماع الرئيس غورباتشوف لتكون حجتى في التوجه اليه قوية ومقنعة ، فان نية الخير في غير حاجة الى شروط تبررها ومغانم تشفع لها ، وبيان الرأى حق مشروع لاسيما في أمور تمس المصير والمصلحة حتى انه يصبح واجبا اخلاقيا اذا كان يخص أمرا تختلف فيه الآراء اختلافا قد يضر في بعض احتمالاته كأن ينتصر فيه الجهة العاطفية المتجاهلة للمصالح •

نرجع الى سياق الكتاب :

يمضى الكلام في اوله بالصفحة ٦١ عن وجود امثلة في التأريخ لما يسمى « ثورة من أعلى » وهى ليست انقلابا أو ثورة قصور وانما هى تغييرات عميقة وثورية جرت بمبادرة من السلطات نفسها وتطلبتها التغييرات الموضوعية في الوضع والمزاج الأجتماعى • ويقول ان البيريسترويكا ليست من هذا النمط فقد جرت بمبادرة من الحزب الشيوعى وقيادته وان الحزب بدأ بتقويم نفسه وان الرئيس غورباتشوف بنفسه اخبر نشطاء الحزب في مدينة خبروفسك في صيف ١٩٨٦ بوجوب البدء بأنفسهم في المكتب السياسى والهيئات المحلية ونساعد من لا يستطيعون تقويم أنفسهم ويجب ان يكون ضميرهم حيا فقد اعتادوا ممارسات شتى عند فقدان الصراحة •• وليس ذلك يعني تملق الناس فقد وجب ان يعرف الشعب الحقيقة ولا داعى للخوف من الشعب وان الصراحة خاصية للاشتراكية :

أقف قليلا عند هذه الجملة :

المعروف على نطاق الزمان والمكان ان الثورات تمدح نفسها باسراف ممل ومرد ذلك الى عاملين أحدهما هو تبرير الذات فيما اقدمت عليه من تغيير فوري مصحوب بصنوف من تجاوز القصد ، ومن باب مصداقية شعاراتها وأهدافها في الوعود السخية بتعميم الخير والحرية مع الخبز والقشدة المحلاة بعسل النحل • وثانيهما هو مزيج من التستر على الفشل وابطال دعاوى الاطراف المعارضة واجبار الناس على الرضا بالواقع • والأشتراكية اللينينية الماركسية واحدة من أبرز الأمثلة في هذا المجال فهى منذ أول خطاها بحاجة الى تبرير الذات لأنها لم تحز اكثرية الآراء في التصويت وانما تستند الى شرعية في الدوام مبنية على ادعاآت مجردة فهى من هذه الزاوية كانت في طول عمرها غير صريحة ومنكرة للحقيقة من باب ضرورة التمسك بالوجود • ان الاشتراكية تكون صريحة كأى نظام اقتصادى آخر اذا قامت على اساس مقتضيات المصالح الحقيقية النامية بشكل طبيعي غير مفتعل فهي لم تبرز بالأنفجار والتدمير والتقطيع كي تبرر ذاتها بمعاذير الطبيب الجراح في اجراء العملية ابتداء ولا تسببت في نقص الثمرات حتى تداوي خيبتها بالاذعاآت الفارغة ثانيا ولا هي تفرض وجودها على الناس الى أبد الدهر كي تلجأ الى التمويه والتشويه ثالثا •

يقول الكتاب بعد ذلك ان البيريسترويكا بدأت بقمة الهرم واتجهت الى القاعدة فلا ينطبق عليها مفهوم الثورة من أعلى أو ان القول بذلك يحتاج الى بعض التحفظات على أقل تقدير • صحيح ان البيريسترويكا ليست عملية تلقائية بل هي عملية موجهة • ولكن للمسألة وجها آخر أيضا وهو أنها قد وحدت بين المبادرة من « أعلى » وبين حركة القاعدة وعبرت عن المصالح الرئيسية طويلة المدى لجميع جماهير الشعب واعتبرتها

الجماهير برنامجا لها واستجابة لافكارها واعترافا لمطالبها فهي قد أيدتها بحماس وبشكل فعال .

هنا وقفة مني لأقول اني سبق رأيي ان البيريسترويكا ليست ثورة في مواضع من الجزء الأول أو هذا الجزء . ويبقى القول بان ترحيب الجماهير بها شيء منتظر بل بديهي فانها ماكانت تتريث في تأييد أي صوت يدعو الى مجرد الانطلاق من القيود دونما حاجة الى تقويته بالأهداف والبرامج والمناهج . وواضح من ماجريات الأمور ومن طبيعة أمرها أن وعود أية ثورة قد تكون في المآل من نقاط ضعفها اذا لم تستطع تحقيقها ويكون اخفاقها في ذلك سببا قويا في تطرف الجماهير يضاف الى السبب المذكور في نزوعها الى الانطلاق . والملحوظ من الفرق بين وعود الثورات وبين المنشورات الترويجية في المعارك الانتخابية الرأسمالية ان المرشح يقدم بيانه الانتخابي بكل أهدافه على أنه منهج عمل وليس صكا موقعا على نفاذه من حتمية التأريخ وضمير الأمة [لقد وردت اشارة في كلام الرئيس غورباتشوف تغمز قناة المرشحين في الانتخابات بالتملق] ويكون بعد البيان الانتخابي عن الواقعية بمقدار التخلف الذي يتصف به بلد الانتخاب ، شأنه في ذلك شأن الصحافة ووسائل الاعلام ومناهج التدريس وتصرف المسئولين .. الخ والمرشح الذي يظهر كذبه في منهجه بعد فوزه يتلقى جزاءه بحرمانه من الفوز في انتخاب قادم على حين تبقى الثورة في عرشها على أتم مايكون من الراحة وهي تجرب قدرتها في نسيان وعودها ولم تعدم في هذه الدنيا ثوارا كانوا على ابان الفشل أعلى صوتا منهم وهم قائمون بالثورة . ومما يلح على الذهن في أمر البيريسترويكا واستجابة الجماهير لها ببعض نتائجها غير المريحة أنها كانت أحسن ظنا بقدرة الاشتراكية على الاقناع الطوعي وأكثر توقعا لسهولة

التصحيح وأشد اعتمادا على حسن تصرف الجماهير مما ظهر في واقع العمل • وتمضي الصفحة ٦٢ و ٦٣ في بيان وجوه التأييد الشعبي والتحام القمة بالقاعدة في مسيرة البيريسترويكا حتى تقول في الأسطر الثلاثة الاخيرة وفي الثلث الأول من الصفحة ٦٤ كلاما جاءت مقدمته هكذا : « وكثير ما يقولون في الغرب ان البيريسترويكا ستواجه المصاعب وان هذا سوف يثير استياء جماهيرنا العاملة » فيتساءل : « فما الذي يمكن ان أقوله ردا على ذلك ؟ » فيجيب : « ستكون هناك بالطبع صعوبات •• » ويسرد مايجب عمله في حالة ما اذا كان هناك سخط أو احتجاج جماهيري مشروع فيقول انه لابد من ادراك اسبابه فلايفيد الحماس الاداري في حالات كهذه ويجب ان نتعلم كيف نعمل حتى لايحدث مثلها •• واذا لم تحل السلطات المشاكل الخاصة للناس فانهم سيحاولون حلها بأنفسهم •• فاذا تجاهلت السلطات العليا كلام الناس فان أفعالا غير عادية تحدث في القاعدة وهي نتيجة مباشرة للتقصير في عملنا ••

لا أرى سببا لاستغراب أو استنكار مايقوله الغرب من نشوء الصعوبات بوجه البيريسترويكا لاسيما من المؤمنين باللينينية الماركسية التي هي في جزئها الخطير تشكيك في قدرة أنظمة الغرب على البقاء • وبافتراض انعدام كل سوء للنية في موقف الغرب فان تقدير المصلحة الذاتية في ارتباطها بالأحوال العامة يستدعي منه تخمين نسبة نصيب البيريسترويكا من النجاح الى نسبة اخفاقها • ولو كنت انا صاحب رأسمال أتعامل به مع السوفيت لتريثت كثيرا حتى أصل الى الاقتناع بزوال النظرة الثورية القديمة التي كانت تعتبر الثروة عند الأفراد أموالا مسروقة يصح مصادرتها وأن التنكر لمعاهدة عقدت مع الامبرياليين عمل ثوري نبيل • ان القائمين بالبيريسترويكا تجاوزوا وخلفوا ظهريا كثيرا من المسلمات

الهشة والتقاليد الثورية المفتعلة والمفاهيم المغالبة لطبيعة البشر وهم في هـذا بارون بأنفسهم ثم بغيرهم لانهم يرفعون عن كاهل الدولة ثقلا كان حاطما بالأضطرار الى سلوك درب توعر عمدا والنفوذ من أبواب شبه مواربـة قصدا مع سبق الأصرار للتعامل مع الدنيا ومع النفس أيضا ولكن لم يزل بقايا من التطبع بنهج عمره ستون ونيف من السنين تظهر في الكلام اكثر مما تظهر في العمل ، وللكلام ، مع كل أسف ، أثر في النفوس والعقليات يكاد يوازي بل يفوق أثر كثير من الأعمال القيمة ولربما جاءت كلمـة صريحة بنية حسنة لتمسح أثر أشهر وسـنين مـن الخدمـة والمـروة والاحسان • والمشهود أيضا ان حامل عقيدة ثابتة في الدين أو الدنيا أكثر ضيقا بالكلمات من رجل دنيوي سياسي لايحمل آيديولوجيا وانما تهمـه المصلحة فلا يهمه كم يكال له من النعوت مادامت السوق بخير على حين يثور الآيديولوجي لنقد قوي يوجه الى معتقده بما يتجـاوز رد فعلـه في تجارة بارت • والمنشغلون بالدنيا أنماط وان أقلهم تأثـرا بالكـلام هـم المنشغلون في المصالح الكبيرة فالمنتظر ان يكون رجل دولة غـير ملتزمـة بايديولوجية معينة أقل الناس التفاتا الى الكلام لانه يمثل بوظيفته أكـبر مصلحة في بلده ولأنه من جهة أخرى أكثر تجردا في المسـائل المتصـلة بالسياسة العامة بقياسها الى أمور تتصل بشخصه • ومن هذه الزاوية يمكن القول بان الناس العاديين في الغرب اكثر تحسسا بالكلام غير المريح مـن رئيس وزرائهم وتأتي خطورة ذلك من ان الانسان العادي في الأنظمـة البرجوازية المتقدمة ذو شأن كبير في رسم السياسات لان المرجـع اليه في هذه السياسات • ولا أرى داعيا لاثبات ذلك لأنه واضح للعيان • اذكـر في هذه المناسبة انه سمعنا مرات ومرات عتابا مـن حكومـات الغـرب على الغموض المحيط بحقائق الأحوال في الاتحاد السوفيتي لاسيما ماكان منها ذا صلة بالسياسة الخارجية أو العلاقات الدولية ـ بعبارة أدق ـ وان اخطر

أنواع الغموض هو الذي يتعتم على قيادة الدولة واختلاف الرأي فيها بصدد القضايا ذات الصفة الدولية لأنه من حق الدول الأخرى أن تعرف أصح الطرق وأسلمها في التعامل مع الاتحاد السوفيتي بدرس الاحتمالات في ضوء الافكار المتفاعلة في قيادة الدولة • فالذي أراه هو أن مصلحة الدولة السوفيتية ، ومصلحة البيريسترويكا بوجه خاص ، هي في ظهور رأي الغرب تجاه مايحدث ببلدكم يا سيادة الرئيس غورباتشوف لا في خفائه • ان وضوح الاشياء في الدول الغربية هو الذي سمح لاعداء الغرب بالتصفيق والتهليل واقامة الافراح فيما سمى فضيحة واترغيت وايران غيت وبعض هراآت المخابرات الامريكية وكلها مضروبة في عشرة لاترقى الى جزء صغير وحقير مما يجري في الدول المستظلة بالخفاء واني لعلى أشد الأسف على اغترار الدول المستخفية والمنغلقة ، باستخلاص أدلة الضعف من انكشاف الامورغيرالمستحبة وغيرالقانونية في دولة كبريطانيا أو فرنسا أو أمريكا وباستخلاص أدلة القوة من قدرتها هي على ستر عيوبها ومنع ذيوعها فانه بقدر مايكون من انكشاف الأحوال في بلد من البلدان تكون الصحة والقوة والثقة بالذات متأصلة وبقدر الانغلاق يكون شك المنغلق في نفسه وشك الناس فيه وتلك بديهية فوق مراتب المناقشة •

أما قول الغربيين بأن المصاعب بوجه البيريسترويكا سوف تثير استياء جماهير روسيا العاملة فهو جزء متمم ومنتظر لصدر كلامهم فالمصاعب مكروهة حتى في اقامة حفلة موسيقية • ولئن كان الكتاب ساكتا عن نية أولئك الغربيين في قولهم هذا فالذي استنتجه من طبيعته التحذيرية انه نوع من المكاشفة المتوجهة الى التقارب وليس التباعد فلو كان قائله مستبطنا شرا وخديعة لما تطوع بفتح عين انسان مطلوب خدعه على احتمال غير مستحب يطلب أخذ الأهبة له • وللرئيس غورباتشوف كلام في آخر

السطور الثلاثة من الصفحة ٦٤ وثلاثة أرباع ماورد في الصفحة ٦٥ يقول فيه ان جيمي كارتر سأله في الصيف الذي كان يكتب فيه البيريسترويكا [بدلالة قوله : هذا الصيف] : « هل أنت واثق من نجاح جهودك للاصلاح الاقتصادي والسياسي في الاتحاد السوفيتي ؟ » والسؤال هذا داخل في مفهوم قول الغربيين بنشوء المصاعب في البيريسترويكا ، يتضح منه شك جيمي كارتر في سهولة نجاحها بالقدر الذي يستسهله القائمون بها وقد يكون شكا في مطلق النجاح . ويأتي جواب الرئيس غورباتشوف على سؤال الرئيس السابق جيمي كارتر منطقيا مع روح المبادرة نفسها فلولا أمل القائمين بها في نجاحها لما أقدموا عليها ويسرد من جوابه وجوه الصعوبة وعوامل الترجيح لحتمية التغلب عليها في عبارات يبدو عليها أنها منقولة من نصوصها المسجلة وليس من صياغة جديدة مستأنية فالصفة الخطابية ومسحة المحاورة ظاهرة عليها وذلك يدخل في رصيده الايجابي بترفعه عن هندمة لم تكن موجودة بالأصل . وفي أول الثلث الثاني من كلامه يقول لجيمي كارتر : «لقد بدأ الغرب على الفور يتحدث عن نوع ما من المعارضة ، بيد ان هذا لايشكل خطورة . لقد بدأنا اعادة بناء هامة.. نعيد صياغة مواقفنا ... تغير جو المجتمع لدرجة كبيرة ... لقد أديرت حركة المجتمع .. نحظى بمساندة ضخمة ... لدينا خبرة العامين الاولين ... سنقدم على هذا الطريق مهما بلغت صعوبته ... سنبلغ بعض الأهداف خلال وقت قصير ... الخ » .

هذه الفقرات كلها تستحق المناقشة ولكنها تطول وتطول فاكتفي منها بفقرة واحدة وهي ان الغرب سارع الى التحدث عن نوع ما من المعارضة . انا لا أعلم ماذا كان المقصود بلفظة المعارضة وهوية المعارضين فلربما قصد بها معارضة أعداء البيريسترويكا من شرذمة البيروقراطيين

والحزبيين المنتفعين وهي أخف أنواع المعارضة وأقلها خطورة على البيريسترويكا شريطة الا يظهر معين لها في شكل معارضة المستفيدين منها وهي تنقسم قسمين : نشوء سخط جماهيري في الجمهوريات السوفيتية غير الروسية وحدوث معارضة داخل قواعد الحزب البلشفي وجماهير الشعب الروسي • على أي حال ومهما قلبنا هذه الكلمة « المعارضة » على احتمالاتها المختلفة وأيا تكن النية وراء اطلاقها فالذي حدث بعدها في أوروبا الشرقية أولا وفي الجمهوريات غير الروسية [الاماندر] ثانيا وفي داخل روسيا ثالثا حتى يومي هذا في ١٩٩٠/١/٢٢ هو وراء كل احتمال ونية نووها وجاوز جل ان لم أقل كل التوقعات الجادة والمحايدة لما قد يحدث في ظل البيريسترويكا • وربما كان من قبيل الصدفة أو الصدفة الممزوجة بشيء من دقة النظر أني لم أكن من المستهينين بالمصاعب الخطيرة في طريقك ياسيد غورباتشوف فقد انبعثت اصداء خوفي من الاحتمالات المخيفة في ثنايا رسالتي الموسومة « الى العظيم غورباتشوف : تحية ورجاء » الصادرة سنة ١٩٨٨ فقد كتبتها في أواسطها ونشرت في أواخرها وبعثت بنسخة منها هدية الى سفارتكم ببغداد من باب منطق الرسالة نفسها وليس من قبيل توقع جواب عليها • همت سفارتكم أن تستوضحني في معاني عبارات صعبت على مترجمها ثم سكتت فلعلها تكون مثل شهرزاد قد أدركها صباح منير من جهة أخرى أغنتها عني فأراحتني • ان مآتي تخوفي من صعوبات مسار البيريسترويكا كانت متعددة منها : (١) موقف أصحاب الرأي والكلمة النافذة في الدولة السوفيتية والمؤسسات الرسمية ذات الحول والطول والقدرة على المخالفة من أبعاد البيريسترويكا وشمولها الدولة السوفيتية ودول شرق أوروبا وانعكاساتها في العالم ولاسيما في البلدان المحسوبة صديقة لروسيا بسبب مشاكلها مع أمريكا • (٢) نوع استجابة الجماهير المجردة من القوة الا كثرتها العددية ومدى تعقلها

وادراكها لمخاطر المغالاة والتطرف في السلوك واستعجال النتائج • (٣) مدى القدرة على علاج الأوضاع المتردية بالتصدي لأسس النظام الآيديولوجية والتطبيقية ونبذ الصيغ الأثرية التي كانت مسئولة الى حد بعيد عما آلت اليه الأمور في اشتراكيتها • (٤) موقف (القومية الروسية) من احتمالات مطالبة القوميات غير الروسية بالاستقلال عن موسكو ورد فعلها من البيريسترويكا اذا حدث هذا الاستقلال وهو غير مستحيل • (٥) اصداء القصور أو الفتور المحتمل في البيريسترويكا كأية حركة تصحيحية عظمى قابلة للمد والجزر في العالم كله لاسيما في صفوف اليسار عامة واليسار الماركسي خاصة • (٦) كيف تتصرف الولايات المتحدة عموما من منظور استمرارها وتوقفها في حماسها للسلام والوئام وماذا يكون موقفها وموقف الغرب الاوروبي اذا تفاقمت المشاكل في روسيا فان للولايات المتحدة مزاجا متقلبا لأسباب كثيرة قد لاتكون المصلحة المادية أقواها في أحوال وظروف مختلفة •

اني بطبعي خائف على الأشياء النبيلة الجميلة فهي بعكس الضراوة والقساوة ذات هشاشة ورقة سريعة العطب فهي اذا تركت لشأنها بغير عناية مالت الى الذبول والجفاف حتى بافتراض انعدام أي عامل محدد يؤثر فيه سلبيا فالزهر والعشب الأخضر لهما مخزون من الطراوة والشفافية تنفدان سريعا مالم تبللا وتهويا في روية على حين يظل الشوك ماضيا في زيادة الحدة بزيادة اليبس • والمصالح الانسانية شأنها شأن العشب والورد لابد لها من السقي والترويح وعلى قدر خطورتها تكون حاجتها الى العناية والرعاية • والبيريسترويكا بوصفها ذات ارتباط وثيق بالوفاق الدولي ذات مقاتل هائلة ومتعددة وتحتمل التعثر والتعرقل فيتعثر بها السلام آليا وعفويا دونما حاجة الى تكلف جهد خاص في العرقلة :

ما أصعب الصحة وما أسهل المرض !!

في سؤال الرئيس السابق كارتر ذكر للاصلاح الاقتصادي والسياسي فيما يشبه التمييز بينهما كشيئين متجاورين غير مختلطين وفي ذلك ، حسب رأي ، تجاوز لطبيعة البيريسترويكا من حيث كونها وسيلة فعالة وضمانة مؤكدة في الوفاق الدولي وفيها ايضا توهين من ارتباط أحدهما بالآخر في انعكاسهما على علاقات روسيا بالغرب فانه بافتراض أن يكون الاصلاح الاقتصادي داخل الدولة السوفيتية ممكنا مع بقاء التحجر والتزمت العقائدي واحكام القبضة على الدول الدائرة في فلكها فليس متصورا ، في رأيي ، ان يكون ازدهار الاقتصاد بما يمتلكه من القدرة على دوام التسلح والمقارعة النووية في دولة منغلقة على نفسها مساعدا على تسهيل فك العقد وفصم التشابك بين طرفين متباعدين في الرؤية السياسية وفي مناهج الانفتاح واختزال المسافات الى المصافحة والأخذ بالاحضان . ورغم ان الضمور الاقتصادي شيء كريه وثقيل في الطبع والتحمل الا انه في زاوية نظر الوئام أعون على التفاهم وأنفى للحرب بما يمثله الضمور من نقص القدرة على التسلح وتكاليف الحرب. وفي حالة روسيا السوفيتية يكون الاخفاق في الاصلاح السياسي واشاعة الديمقراطية سببا كافيا بنفسه لطي صفحة الوفاق والتقارب وكنس حقبة البيريسترويكا واخراج جماعة الرئيس غورباتشوف من مواقع القدرة ولن يكون خلفاؤهم ، في أغلب الأحتمال ، وصلوا الى القيادة الا عن الطريق المعاكس لطريقهم في كل وجهاته ونزوعاته ولربما كان رأس نفيضتهم شخصا بجبروت ستالين واستهزائه بالحقوق الفردية والقيم الديمقراطية . على أي حال يبدو أن الرئيس السابق جيمي كارتر لم يكن في سعة من أمره ليوضح وجهة نظره أو ليستكنه طبيعة الموضوع الذي

يستفسر فيه ان لم يكن نقل الرئيس غورباتشوف عنه مختصرا بما يحجب بعض أبعاد السؤال •

أصل هنا الى نهاية الأسترسال في الجزء الثاني من هذه الكتابة التي توقفت فيها عند آخر الصفحة ٦٥ من كتاب البيريسترويكا الذي تتجاوز صفحاته رقم الثلاثمئة وفي القلب أشياء وأشياء تستبد بي الرغبة الى نشرها في النور تخص القريب والبعيد والعدو والصديق والغني ومن هو دونه غنى حتى الفقير المعدم ولكن اعتبارات كثيرة جلها خارج ارادتي تمنع من فتح الباب على وسعته • والموانع في جوهرها لاتوفر المصلحة للمانع بقدر ما تضر صالح الناس الممنوع منهم والمحرم عليهم من كاتب وقارىء وسامع وهم غالبية الشعوب • والمؤذي في المسألة ان جانبا من الممنوعات يعود الى الجمود الفكري خارج الدوائر الرسمية وضوابط الرقابة في مسائل لاتتصل بالمصالح وانما بالحقائق المجردة من قبيل ماكانت الكنيسة ، مثلا ، في القرون الوسطى تفتى بتكفير من يقول بدوران الأرض • ومن شأن وطبيعة الرافض والمانع لأفكار الآخرين ان يمنح نفسه حق تفنيد كل فكر مباين لفكره وانزال العقوبة ، القاسية غالبا ، بصاحبه وعذره ان ذلك من مضامين عقيدته فهل نسى ان مضمون عقائد أخرى متصعبة أيضا هو قمع عقائد لاتتفق معها فاذا مشت الحكاية الى أواسط الطريق حصل الاشتباك والتذابح بين الاثنتين والعشر والمئة من العقائد المختلفة فما السوء في ترك الناس أحرارا في الدعوة الى مايؤمنون بصوابه والتعبير عنه باسلوب لاتجريح فيه وما الغرابة في ان يتسع فهم أصحاب العقائد الى اتساع فهم باعة الشلغم الذين يروجون لبضاعتهم بالنداء المغري والوصف المشهي ولايثور أحدهم في ذلك على صاحبه وغريمه في المهنة !!

اني أدعو أصحاب الفلسفات المتشنجة المتحرجة والمناهج المتطرفة المتناهية الى الغرق في الذات ، أدعوهم برا بهم وبالبشرية وتوصلا الى حفظ نوع الانسان من الانقراض ، أدعوهم كي يرتفعوا بفكرهم الى الفهم الساذج المستقيم لرجل الشارع وأصحاب الحرف المتصرفين في المعايش بسياق مع المصلحة الخاصة والعامة بلا ضجيج أو عراك أو ذبح أو سلخ أو تقطيع فيأخذوا منهم عبرة المسالمة والمعايشة ويكفوا أنفسهم وغيرهم من الناس عناء المسارعة الى الأفناء والفناء : فاذا عز عليهم الطلب في محاكاة بني البشر فليتبعوا منهج بني البقر من باب التقليد فقد ندر أن تنازعت آحاده على الماء والعشب والشجرة « قتل الانسان ما اكفره » ! وعذرا مني الى الضمائر الحية فقد فدحني بما لاطاقة لي على احتماله ان تعمى البصائر و تحلولك الأنفس وتدلهم الأفئدة على أصحابها شرقا وغربا وعلى الجوانب حتى تضيع خطاها في الوبال والضلال والجنوح الى شر مآل..!

وفي الختام بانتظار سنوح الفرصة لأخراج الجزء الثالث • أسبح برجائي في وصول الأنسان الى بر الأمان مرددا في تفاؤل منعش ما قاله الرئيس غورباتشوف في الأسطر الثلاثة الأخيرة للصفحة ٦٥ المذكورة آنفا : « وسوف تتحسن الحياة ، وهناك صعوبات ، وستكون هناك صعوبات كبيرة ، على طريق البيريسترويكا ، ونحن لانخفي ذلك • ولكننا سنتغلب عليها • ونحن واثقون من ذلك » •

بغداد ـ ١٩٩٠/١/٢٣

اعتذار واستسماح

لقد وقعت اخطاء مطبعية رغم بذل أقصى الجهد لمنعها فارجو المعذرة وأتعشم تفضل القارىء بالرجوع الى الصفحة التالية حيث جدول الكلمات التي امكن العثور عليها في معاودة أخيرة لقراءة الملزمات • والملحوظ ان اغلب الكلمات التي وقع فيها الخطأ سهلة التبديل بصحيحها حتى من دون الرجوع الى الجدول المذكور • وتركت بعض الكلمات التى فيها نقص نقطة أو زيادة ركزة لوضوح شأنها وعدم وجود داع لاطالة الجـــدول بلا لزوم •

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٨	٩	اللاواقعة	اللاواقعية
١٨	٢٣	تضخم	تضخيم
٢٤	١٤	مـــن	فـــي
٤٥	١٩	اصراباته	اضراباته
٤٧	١١	لما لها	لمـــآلها
١٠٧	٩	وقال	وقالـــه
١٠٩	٢١	مقامة	مقامـــه
١٢٠	٥	سيرة	مسيرة
١٢٣	١٢	أكثر ثلث	أكثر من ثلث
١٢٣	٢١	الثأنية	الثانيـــة
١٢٧	٢٢	الكتابة	الـكتاب
١٤٤	١٦	بالاذعاآت	بالادعاآت
١٤٥	١	لمطالبها	بمطالبهـا
١٤٩	٩	مـــن	فـــي

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٩٠٢ لسنة ١٩٩٠